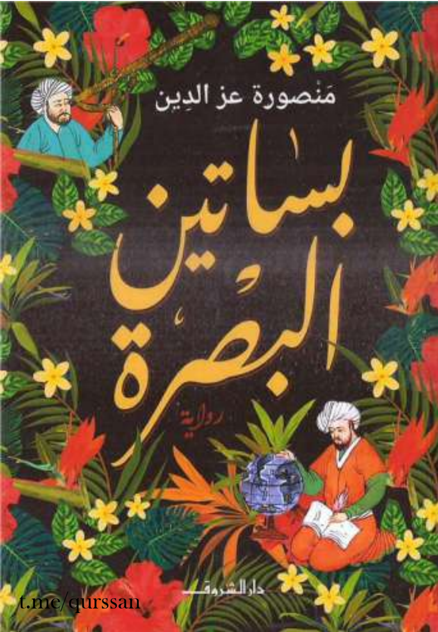

مَنصورة عز الدِين
بساتين البصرة
رواية
دار الشروق
t.me/qurssan

بساتين البصرة

منصورة عز الدين

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

@dareshorouk @dareshorouk

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ١٣٥٨٧/ ٢٠٢٠
ISBN 978-977-09-3664-1

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

عز الدين، منصورة.
بساتين البصرة / منصورة عز الدين.
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٠
١٦٨ ص، ٢٠ سم
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٦٦٤١
١- القصص العربية
أ- العنوان
رقم الإيداع ١٣٥٨٧/ ٢٠٢٠
٨١٣

مَنصُورة عز الدِين



دار الشروق


mohamed khatab

«وأما الياسمين: فقد حُكِيَ أن رجلًا أتى الحسن البصري رحمه الله فقال: رأيت البارحة كأن الملائكة نزلت من السماء تلتقط الياسمين من البصرة. فاسترجع الحسن وقال: ذهب علماء البصرة. وقد قيل إن الياسمين يدل على الهم والحزن لأن أول اسمه يأس».

تفسير الأحلام الكبير المنسوب
للإمام محمد بن سيرين

«إن الحلم يمثل قصة متهدمة، وإنه ليصنع من خرائب الذاكرة».

رولان بارت.. هسهسة اللغة..
ت: منذر عياشي

سماء تركوازية كما يليق بحجر كريم

-١-

بالأمس أكلت قمرًا.

أتذكر شارعًا تناثر فيه بضعة أفراد، كأنهم كومبارس في فيلم صامت، بطولته لي وحدي، أنا المتلصِّص عليهم عبر كوة في جدار يفصلني عن الحياة. وأتذكر أنني رفعتُ رأسي نحو السماء، فرأيتُ قمرًا مزدوجًا، أو للدقة، قمرًا ينبعث انعكاسه بجواره بحيث يلتصقان معًا كما لو أن هناك مرآة خفية تربط بينهما.

بعدها لمحتُ انعكاسيْن آخرين لهما؛ أحدهما يمينًا والآخر يسارًا. اندهشتُ لأن سمائي تسكنها ستة أقمار، أو بالأحرى ثلاثة أزواج من الأقمار، لكنها كانت دهشة متحفظة تناسب أن أفتح باب شقتنا لأفاجأ بقطة سوداء تنتظر على الدَّرَج.

لم أنتبه إلى أن سماء ليلتي الماضية تلوَّنت بمسحة تركوازية تليق بحجر كريم، إلّا لاحقًا، وحينها فقط، خطر لي أنني أكلتُ القمر. كان في يدي رغيف خبز، وضعتُ فوقه القمر، (أم أنه كان بيضة مسلوقة؟!)، ولففتُ الرغيف، وبدأتُ في قضمه حتى انتهيتُ منه، ولم أجرؤ بعدها على النظر لأعلى. خيَّم الظلام، فاستنتجتُ أن ضوء حياتي قد تلاشى مع القمر المأكول.

غير بعيد عن الجدار ذي الكوة المطلة على الشارع، تمددتُ فوق مقعد حجري تظلله شجرة زهورها أشبه بأجراس برتقالية

يطفي حضورها على مشهد غابت عنه الأوراق الخضراء. رنَّ في رأسي صوت أليف يخبرني بأن الشجرة اسمها «بوباكس» وإزهارها يسبق تجدُّدَ خضرتها، فلم أعرف من أين جاءتني هذه المعلومة. كنتُ فقط مدركًا لدفءٍ متغلغلٍ في أحشائي كما لو أن قمرًا يُنير عتمتها الداخلية.

لمستُ لحظتها جوهري الورقي. لستُ ذلك «العاطل، خائب الرجاء» الساكن في كلمات أمي ليلى حين كانت تُوَجِّه لي شتائمها، ثم إنها ليست أمي من الأساس.

أخبرني القمر المستقرّ في أعماقي بهذا وغيره الكثير. حثني على تجاهل الصداع والحموضة والدوار. أعادني إلى هويتي، وإلى حلم غابر كنتُ بطله ورائيه. حلم ربما صادفه بعضكم بين دفتي «تفسير الأحلام الكبير» المنسوب للإمام محمد بن سيرين، دون أن ينشغل بمَن رآه وقصَّهُ على الحسن البصري.

في رؤيايَ البعيدةِ تلك، شهدتُ على الملائكة تقطف الياسمين من بساتين البصرة، وفسّر الإمام منامي بذهاب علماء المدينة. شعرتُ بالذنب، كأنني من جلبَ لهم هذا المصير، أو حتى كأنني قاتلهم أو ملاك الموت المنتزع لأرواحهم. لم أخبر شيخي وإمامي بأن الحلم ظلَّ يعاودني لفترة، وأنّي أبصرت شجيرات خلت من الزهور، وياسمينًا لا يُحصى يغطي الطرقات وتدوسه الأقدام، ثم تراءت لي البصرة - بلا ياسمين ولا بساتين- فضاءً قاحلًا خربًا يرعبني مجرد تذكره.

كنتُ بشرًا من دم ولحم وأعصاب، ثم وجدتُ رؤيايَ لنفسها مكانًا داخل المُؤلَّفِ المنسوب لابن سيرين، فصرتُ كائنًا ورقيًا.

اعتدتُ مؤخرًا مراقبة ذاتي المتجمدة في شكل حروف وكلمات بين دفتي الكتاب، فينتابني الفخر تارة، ويلتهمني السخط أخرى.

لم أعرف قط، مَن انتبه إلى رؤيايَ ودوَّنها، غيرَ أنني على علم برد فعل شيخي عليها. لن أنسى ما حييت إطراقته الأولى، ولا صمته اللاحق. انحفرت تلك اللحظة في روحي، تمامًا مثلما انحفرت دروب مدينتي الأبدية وساحاتها وسماؤها. يكذب من يقول إن السماء واحدة في كل الأماكن. من يزعم هذا، لم يبصر سماء البصرة من قبل، لم ينغمس عن آخره في مراقبة سحبها وغيومها ودرجاتها اللونية.

تحرَّرت روحي من سجن الجسد، ودُفنتُ في بقعة منسية على حدود كَرْمَة قريبة من شطّ العرب. أعرف الآن أن أحاسيس شتى كانت تتناوب عليّ في مستقري ذاك، وأنني كنت أنمّي غضبي وآفات على ذكرياتي، لكنني ظللتُ باقيًا (لن أقول حيًّا) داخل «تفسير الأحلام الكبير» المنسوب لمحمد بن سيرين.

ثم انبثقتُ – بطريقة ما– في «المنيا»؛ تلك المدينة الهادئة على ضفاف النيل، لأبٍ يحيا وفق ما تُمليه عليه نزواته، وأم لا يرضيها شيء»، وبإمكانها قضاء اليوم بكامله في الشكوى والعويل، فيخرج الأب من قوقعة صمته، ويجيبها بجملة لاهية تضاعف من غليانها. كان هذا قبل أن يهجرنا نهائيًا، ويهيم على وجهه في بلاد الآخرين، بعد أن قضى معظم أيامه، منذ وعت ذاكرتي على وجوده، هائمًا في القرى والمدن المصرية.

كان أبي مغرمًا بفن الحكي، مفتونًا بالسيرة الهلالية على وجه خاص، يتنقل خلف منشديها في القرى والنجوع المجاورة، تاركًا عمله، حارمًا إيانا من قروش قليلة كانت تطعمنا بالكاد، فتكفي أمي على ماكينة خياطة ماركة «سنجر»؛ كي تتمكن من الحفاظ على نار

الموقد في مطبخها مشتعلة، مثلما اعتادت أن تقول. والحق، أن مطبخ أمي، على صغره، كان أفضل بقعة في منزلنا.

في طفولتي، كان يحلو لي الجلوس فوق «رُخامته»، أراقبها وهي تقطع الخضراوات، أو تنظف الدجاج فيما تبرطم بلعنات لا أستبين كنهها، وإن كنت أعلم علم اليقين إلى من توجِّهها.

في تلك الأوقات، كان يروقني مُباغتتها بسؤالي المفضَّل عن هوية أبوَيَّ الحقيقيين، ثم أقفز راكضًا خارج المطبخ، فيما تلاحقني هي بالسباب. في ساعات غضبها الشديد، كانت تطاردني راغبة في ضربي، وفي مرات صفوها النادرة تكتفي بجملتها الأثيرة:

«لقيناك على باب جامع»!

لا بدَّ أنها ارتاحت حين كبرتُ، ولم أعد أشاكسها بسؤالي هذا. ربما حتى ظنَّت أنني أقلعتُ عن الانشغال بالموضوع مع النضج. ما لا تدركه أن انشغالي عتَّقه مرور السنوات، إلّا أنني انحزت للتقية. داريته عنها أولًا كي أخفف من بؤسها بعدما هجر أبي البيت ثم البلد كليًّا، وثانيًا لأنني لم أعد في حاجة إلى إجابة عن سؤالي؛ فالإجابة وصلتني - مع الوقت- بأكثر الطرق وضوحًا، بحيث صرت واعيًا تمام الوعي بهويتي.

عدتُ بشريًّا من جديد، لكن ماضيَّ الورقي يتعقبني ويأبى مفارقتي، شأنه شأن تفاصيل حياتي في مدينة الأئمة واللغة والبساتين، حين كان اسمي يزيد بن أبيه وليس هشام خطّاب.

كانت البصرة وما زالت مرجعيتي الدائمة، موطن روحي، وترابًا أتمنى أن يحتضن جسدي ويقتاتُ عليه يوم تغادرني الروح من جديد. ظلت ماثلة في ذاكرتي أينما توجهتُ، وها هي الآن حاضرة

في مخيلتي كظلال مخاتل يأبى الاختفاء أو السطوع، مفضلًا البقاء في منطقة البين بين.

في لحظات شكّي، أذكّر نفسي بأنني لم أزرها قط، لم أخطُ في شوارعها، ولم أقترب من سكة المربد، أو أنعم برؤية بساتينها وأفقها ولا أعرف حتى إن كانت عامرة بالياسمين أم لا! غير أنّي أعود ليقيني بأن الزمن نهرٌ سيّال والمكان وهم. مكاننا الحقيقي موطن أرواحنا، وروحي عالقة هناك في المدينة القديمة قبل خرابها اللاحق خلال ثورة الزنج.

لن يصدقني أحد إذا حكيت له أن بصراي الأليفة والحادة كنصل خنجر في آنٍ، صارت تتجلى لي، بحيث أكاد أراها رأي العين. لا تزورني في الأحلام، بل تتبسط أمامي في أثناء صحوي في لحظاتٍ بعينها، أكون فيها في أقصى درجات تركيزي وغفلتي معًا. لحظات أشحذ فيها ذهني وأسنّه وأوجهه فقط نحو ماضيّ في مدينتي الحبيبة، وأصرفه عن حاضري بحيث يستحيل عدمًا. حينها فقط تنبثق مدينة الأئمة واللغة والبساتين أمام ناظري، تخرج من سديم أبيض يتقشع كاشفًا عن ملمح من ملامحها، فأتعرف عليه على الفور. في تلك اللحظات أقسم إنني أكاد أختبر إحساس يعقوب فور معرفته بأن يوسف حي يرزق، لم يلتهمه ذئب ما.

ينحلّ ضباب بصيرتي فأراني أقف على باب شيخي الحسن وجلًا متسائلًا عن حزن يسكن عينيه وروحه، فيجيبني بكلام مستغلق على فهمي. رأيته إذ يُطرق بعد أن أنصت إلى حلمي باهتمام، وسمعته حين قال: «اعتزلَنا واصل»! فلم أعرف إن دلّت نبرته على الدهشة، أم العتب، أم على ألم مشوب بسخرية خفيفة.

لمحت واصل بن عطاء صامتًا كمهدي به، ومررتُ به في جلسته المعتادة بسوق الغزَّالين.

أبصرتُ مدينتي عامرة الأسواق، مزدهرة بساتين فاكهتها وجنانها الحافلة بالنخيل والأعناب. ثم رأيت دجلة يجفت، والأهوار تغمرها سيقان القصب والحلفاء والحشائش الضارة، ورأيتني أركض بلا توقف، تُدمي حجارة الطريق قدمَيَّ وتكاد الشمس الحارقة تشعل رأسي، ولم يكن ثمة قمر في عالمي، كأن فكرته غابت عن الوجود، أو كأنني ابتلعته من قديم.

خطر لي، بينما يتجسَّد ركض ذاتي العتيقة أمام ناظري، أن بداخلي سرًّا لا قدرة لي على حمله، وأني في جريي في ذاك الزمن الغابر كنت أبحث عن حلٍّ للغز يقضّ مضجعي.

في موقعي الحالي، على المقعد الرخامي أسفل شجرة البومباكس، انتقلت لي عدوى البحث وقلقه. عرفت أني، هشام خطّاب، لن أتوقف عن البحث أبدًا، سأظلّ مهجوسًا به، عاجزًا عن هجره حتى لو عثرت على مبتغاي. أرّقني عبء السرّ المفترض، رغم عدم وضع يدي على كنهه؛ وبهذا استحال السرُّ لغزًا جديدًا يُضاف إلى اللغز الأول الذي سعى تَجسُّدي السابق؛ يزيد بن أبيه، إلى فكِّ شفراته.

عاودتني جملة فريد الدين العطّار: «فلتكف عن البحث، فما فقدت شيئًا، ولتكف عن الكلام، فكل ما تقول ليس سوى ثرثرة». فقررت عصيانه، مع اقتناعي بوجاهة رؤيته.

قلت لنفسي بصوتٍ مرتعش: لن أكفَّ عن البحث عملًا بنصيحة العطّار، بل سأبحث عن الشيء، في سواه، وأقتفي أثر ذاتي خارجها؛ لعلني أقبض على لمحةٍ منها في كل ما عداها.

أفيق عادةً على صداع خفيف، لكنه متواصل بدرجة تشعرني بأن هناك من يدقّ رأسي، من الداخل، بمطرقة.

في الوقت عينه، أكون محاطًا برائحة ياسمين، أقرب إلى غمامة تلفني وتحملني معها إلى حيث لا أعلم. لا تنبعث الرائحة من زهور فعلية على مقربة؛ إذ ينبع تجليها من الغياب لا من الحضور الفعلي. ألتفت حولي بحثًا عن شجيرات ياسمين أو حتى فل أو جاردينيا فلا أجد، فأتيقن من صدق حدسي: ينبثق الشذا من داخلي، كأنه ذكرى الياسمين في عالم خلا منه فجأة.

أقنعتُ نفسي بهذا لأنني لم أفهم قط من أين يغمرني في أكثر الأماكن والأوقات غرابة، ولا ما علاقته بالصداع والتوتر المصاحبين له دائمًا. فعلى عكس من يجلب لهم عبير الياسمين الهدوء والاسترخاء، لطالما أورثني ضيقًا غير مبرر مصحوبًا بشعور مبهم بالذنب والاختناق.

اعتادت أمي ليلى أن تزرع النعناع والريحان في أصص صغيرة مرصوصة بعناية في شرفتها، ولو كنتُ قد سألتها يومًا عن وجود ياسمين في شقتنا، لَنَظرتْ إليَّ نظرتها إلى مجنون. بالنسبة إليها، العالم مقسَّم إلى قواعد لا ينبغي مخالفتها، وواحدة من قواعده أو حقائقه العلمية، في رأيها، أن الياسمين والورد وما يماثلهما من

زهور أشياء مخصصة – حصرًا – للمرفهين وذوي البال الخالي من الهموم، ولا علاقة لأمثالنا من الأشقياء بها.

أتذكر يومَ عدتُ بباقة قرنفل ابتعتها من عجوز على الكورنيش بجوار فندق حورس، لا لشيء إلا لرغبتي في مساعدتها. رفضت المرأة قبول نقودي إن لم آخذ قرنفلاتها، فامتثلت لرغبتها، وحملتُ الزهور معي إلى البيت. كانت أمي خارجة من المطبخ، تجفف يديها في ملابسها، لحظة فتحي للباب. حدقت فيَّ بذهول وخيبة أمل، ولوت فمها وهي تقول:

«ياما جاب الغراب لأمه. مش كان أحسن لو جبت معاك حزمتين جرجير!».

«مساء الفل يا ست الكل».

لم ترد عليّ وواصلتْ طريقها نحو غرفتها، ثم أغلقتِ الباب خلفها بعنف. بحثتُ عن زجاجة فارغة، ملأتها لمنتصفها بالماء ووضعتُ فيها الزهور وتركتها فوق طاولة في الصالة، لكن في صباح اليوم التالي لم أجد لها أثرًا. كانت أمي جالسة على الأرض تقطف أوراق الملوخية، وتنظر نحوي كأنما تتحداني أن أسأل عن مصير القرنفل.

لطالما قالت إنني مضروب بالوهم، تمامًا مثلما كان أبي مضروبًا بسيرة بني هلال. كثيرًا ما سمعتها تنعى حظها بصوت – يصلني من المطبخ – أقرب إلى العويل. لم أفهم شكواها، بل لم أستوعب علاقتها بي قط. كنت أنظر إليها أحيانًا، فلا أعرف من تكون. امرأة حفر الحزن تعاريجه بوضوح في وجهها، تهدد بحرق كتبي أو بيعها بالكيلو جرام لبائع «الروبابيكيا» إن لم ألتفت لحياتي وأبحث عن

عمل حقيقي بدلًا من الانكباب هكذا، ليل نهار، على كتب مصفرة الأوراق، قد يفتت نسيجها تحت ضغطة يد غير خبيرة.

لم تكن تقتنع حين أخبرها بأن ما أقوم به عمل حقيقي، وأن كتبي التي لا تروقها، قد تجلب لنا ثروة في غمضة عين. كنت أشرح لها أن هذه المجلدات القديمة بعضها نادر، وهناك من يفضلها على أي شيء آخر، ودوري يتمثل في البحث عن المشتري المثالي، فترمقني بواحدة من تلك النظرات الناقمة التي اعتادت الاحتفاظ بها – في الماضي – لأبي دون سواه، لكنها لا تعترض بكلمة واحدة؛ ربما لأنني اعتدت منحها مبلغًا شهريًا معتبرًا كي تنفق منه على البيت؛ وربما لأنني ضحيتُ بحياتي في القاهرة، وعدتُ للعيش معها في المنيا خوفًا عليها من الوحدة والمرض بمجرد تأكد موت أبي في تغريبته الليبية.

كانت تعرف أني أحصل على النقود من بيع الكتب والمؤلفات النادرة، بعض الزبائن اعتادوا التردد على بيتنا، والتفاوض معي على السعر، فيما ترمقنا هي خلسة من مكانها المفضَّل في الصالة، غير مصدقة أن هناك من يدفع مالًا لشراء مثل هذه الكتب مصفرة الأوراق.

«شوية ورق مالوش لازمة».

على حد قولها.

تبدو مرتابة أحيانًا، كأنما تظنّ أن المفاوضات الجارية أمامها مجرد تمويه لإخفاء شيء ممنوع؛ تجارة مخدرات أو آثار مهربة مثلًا. أكثر من مرة فاجأتها تفتش المجلدات المركونة في غرفتي، تبحث في الأدراج وفي خزانة الملابس عمّا يدعم شكوكها.

مع الوقت، هدأت مخاوفها، إلّا أنها لم تكفّ عن التذمر والتشكي. قالت مرة إن المسألة ليست في كسب المال، بل في

طريقة الحصول عليه، وإنها تحار حين تحاول شرح طبيعة عملي لجاراتها ممن يتخيلن أنني عاطل.

هي، أيضًا، اعتادت معاملتي كعاطل. بالنسبة إليها، يجب أن يخرج الناس إلى أعمالهم في الصباح، وأن يعودوا منها في وقت محدد. أعمال مكانها معروف ومقراتها يمكن الوصول إليها والتباهي بها.

قاعدة أخرى من قواعد العالم أو حقائقه العلمية في نظر أمي.

لطالما تجاهلتُ حقيقة أني لم يكن لي خيار في عدم العمل في مجال تخصصي. أعشق الكتب القديمة، لكنها كانت ستظل هواية أشغل بها أوقات فراغي، لو وجدت - بعد تخرجي - عملًا مناسبًا لشهادتي الجامعية. تمثل ولعي الأساسي في العلوم، شغفتُ بالكيمياء على وجه الخصوص. درجاتي في الثانوية العامة لم تتح لي دراسة الصيدلة مثلما حلمتُ هي؛ فقررتُ الالتحاق بكلية العلوم.

حتى تلك اللحظة، لم يكن أملها قد خاب فيَّ بعد. ظلتْ مهتمة، تفكر معي في الاحتمالات. حين أردتُ الالتحاق بقسم الكيمياء كما أحلم، استعرضتْ مخاوفها الخاصة بأنني إن لم أحصل على تقديرات ممتازة لأعين معيدًا في القسم، فسوف أصبح مدرس كيمياء في مدرسة ريفية مهملة مثل آلاف غيري. أقنعتني لأنني لا أحب مهنة التدريس ولم أكن - في تلك المرحلة العمرية - متأكدًا تمامًا مما عليَّ فعله. تمثَّل الحل الذي سمعته من صديقة لها في التحاقي بقسم الجيولوجيا؛ لأن هذا سيتيح لي العمل بإحدى شركات البترول المرموقة مثل ابن تلك الصديقة.

المفاجأة أني تخرجتُ بتقديرات ممتازة، كنتُ الثاني على دفعتي، وتوقعتُ أن أصير معيدًا، لكنهم اكتفوا بتعيين الأول على

الدفعة فقط، والثالث عُيِّن في كلية علوم بجامعة جديدة لأن والده كان أحد قيادات الجامعة، وخرجتُ أنا خالي الوفاض، في رحلة بحث عن موطئ قدم لي في أي شركة بترول.

تتبعتُ إعلانات هذه الشركات، وقدمتُ أوراقي في معظمها. في البداية كنتُ مطمئنًا إلى أن تفوقي سوف يضمن لي مكانًا بسهولة في واحدة منها، ومع الوقت بدأ اطمئناني يتبخر. لم أتلقَّ ردًّا من معظم الشركات، ثم وصلني خطاب من إحداها مفاده أني مدرج على لائحة الانتظار لديهم، وسوف يتصلون بي ما إن يحتاجون إليَّ.

أظنني ما زلت على لائحة الانتظار المبجَّلة تلك بعد مرور كل هذه السنوات.

في الأثناء، توسط لي ابن صديقة أمي كي ألتحق بالشركة التي يعمل بها. أخبروني في مقرهم بمصر الجديدة بأني سأتدرب معهم لشهرين فقط، تخيلت أنني سوف أقضي فترة تدريبي في الموقع الصحراوي حيث يعمل ابن تلك الصديقة، لكنهم تركوني في المقرِّ الإداري للشركة. أتناول قهوة مجانية بعد الأخرى، وأثرثر مع متدربين آخرين، أو أقرأ كتابًا أحضرته معي كي يعينني على ساعات من اللاشيء. قوبلت كل محاولاتي كي أكون مفيدًا لهم، بأي شكل، بلا اكتراث مهذب.

هكذا عدتُ، بعد انتهاء الشهرين، إلى قواعدي سالمًا في جيش العاطلين عن العمل، وتنامى اهتمامي بالكتب القديمة. بدت كمقبرة مثالية لدفن إحباطي وشعوري بالخيبة واللاجدوى.

وثَّقتُ أواصر صداقتي مع بائعي سور الأزبكية، وكففتُ لفترة عن مهاتفة أمي لأنها حملتني مسئولية عدم استمراري في العمل مع

شركة البترول، ولم تقتنع قط بأنهم لم يمنحوني الفرصة كي أظهر لهم قدراتي، وتعاملوا مع شهادتي بتقديراتها الممتازة كما لو كانت عدمًا. كل الوظائف تقريبًا كانت محجوزة لمن لديهم وساطات أهم، هناك من جاءوا- خلال الفترة التي قضيتها هناك- من الجامعة مباشرةً على وظائف محجوزة لهم بتوصية من أقارب ومعارف في مناصب عليا في الدولة. لم تكن أمي لتفهم أيًا من هذا. بالنسبة إليها، أنا من ضيَّع فرصة التثبيت في شركة دولية مهمة لأنني، مثل أبي، مضروب بالوهم ومسكون بالضياع.

كنت أتعاطف معها في بعض الأوقات. وكان هذا يحدث عادةً حين تخصني بوجبة شهية من طهيها اللذيذ: فتّة بالخل والثوم مع لحم الضأن، صينية مكرونة بالبشاميل، أو ملوخية بالأرانب مثلًا.

فيما خلا هذا، كنت أضيق بها، ويتضاعف شعوري بالاغتراب. لا أعرف إن كان الأبناء عمومًا يشعرون تجاه آبائهم بمثل ما أختبره من اغتراب تجاه أبوَيَّ، أم أنني حالة شاذة. يساورني دائمًا إحساس بأنّي مقطوع من شجرة، لا جذر لي ولا امتداد سوف ينبثق مني.

أوقن، بشكل غامض، أن لا أمّ لي ولا أب، أو للدقة لا أمّ لي سوى تلك الأمّ التي عاشت قبل قرون، ولا أبَ معروفًا لي. أومن بهذا تمامًا، وتحفظه ذاكرتي كنواة تتمحور حولها وتتوالد منها كل الذكريات الأخرى.

في طفولتي، كنتُ أتماهى مع اللقطاء واليتامى، مَن عاشوا وَهْمَ أنهم أبناء لآباء كانوا- في الحقيقة- لا يمتون لهم بصلة. اخترتُ تصديق ردّ أمي شبه الدائم على سؤالي عن هوية أبوَيَّ الحقيقيين: «لقيناك على باب الجامع».

اعتدتُ التسلي بمحاولة تخيل ذاك الجامع، ومحاولة تخيلني رضيعًا متدثرًا بكائه وصراخه في سلة من الخوص؛ الخوص تحديدًا، غير أن هذا السيناريو لم يقنعني بما يكفي، فأبي وأمي - كما أعرفهما - لا علاقة لهما بالمساجد على إطلاقها، وعن نفسي أستبعد أن يكونا قد مرَّا يومًا على مقربة من أحدها. أبي لم يصلِّ قط، ولم يكنْ يستيقظ سوى قرب الظهيرة، وأمي لم تكن تخرج سوى إلى السوق أو للبحث عن أبي.

في صغري، اعتادت المواظبة على صلاة واحدة يوميًا بمجرد استيقاظها والاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم، إلى أن يحين موعد إذاعة «إلى ربات البيوت» على محطة «البرنامج العام»، قبل الانغماس في مهامِّ البيت موزعة بين الشكوى والهمهمة الغاضبة وبين الإنصات إلى أغنية تلفت نظرها. وإذا حدث وذكَّرتها ببقية الصلوات، تشير نحو الأعلى قائلة:

«ربنا عارف اللي في قلبي».

لا أعرف لماذا أستدعي هذه التفاصيل، فيما أنظر -عبر النافذة- إلى البواب وهو يجمع الزهور المتساقطة أسفل شجرة البومباكس، التي يمتدّ خلفها سور بالغ الارتفاع، يحجب خلفه ضجيج الحياة وصخبها.

كنتُ قد أفقت مبكرًا، حاولتُ عبثًا مواصلة نومي، لكن اليقظة ضربتني بقبضتها الثقيلة، وأفشلت أفكاري المتضاربة أيَّ مسعى مني لاستكمال النوم. قمتُ من فراشي، وجلستُ في مواجهة النافذة المطلة على شجرة البومباكس المثيرة لخيالي.

زهورها بلون الجزر؟ لا، بل بلون البرتقال، أو ربما بلون اللهب الصناعي لمدفأتي الكهربائية القديمة بشقة المنيا.

الدقة مطلوبة. ليست ترفًا. إنها الطريق إلى السعادة والنجاح، لكن على مَنْ تقرأ مزاميرك يا داود؟

يكاد يصلني صوت أمي من بعيد بقوة الخيال. يبدو مكتومًا، كأنما يصدر من جوف بئر. لا أنجح في تحديد كُنه ما تقول. يخطر لي أنها تترنم بواحدة من أغنيات الطفولة في قريتها المنسية في دلتا النيل. في آخر عهدي بها، صارت تفضّل مواويل أقرب إلى المراثي. حدث هذا التحول بعدما أخبرها الطبيب بإصابتها بمرض السكري. أصبحت في مزاج قاتم، وراحت تمعن في رثاء الذات.

«يا أنا ولا زيي، زي القمر. يا أنا ويتمشي في ضيي»!

كنتُ أسمعها تترنم بصوت متعب مغلّف بالأسى، فأرغب في مشاركتها في رثاء شبابها المنصرم. في ساعات رضاها عني، اعتادت أن تحكي لي عن جمالها وهي شابّة. كان يحلو لها تشبيه نفسها بالقمر، وبدوري تجاهلتُ اسمها الأصلي؛ ليلى، وصرت أناديها بـ«قمر»، فتبتسم برضا تخجل منه، وتنهرني بعدها على أشياء معظمها مخترع.

-٣-

في مكتبات بيع الكتب القديمة، لم يكن أحد يسألني عن تخصصي الدراسي، ولا عن أي شيء آخر، ما دمتُ قد أظهرت مهارتي في الإلمام بدقائق مهنتهم. كنت أحفظ الطبعات المختلفة لكتب التراث، وأعرف أهمّ التحقيقات للكتب النادرة، والمعرفة أهمُّ خطوات ملاحقة المنسي والمفقود وغير المتاح.

لستُ مجرد باحث عن الكتب القيّمة، كنت وما زلت قارئًا نهمًا راغبًا في الاطلاع على محتواها قبل رغبتي في بيعها للمهتمين المستعدين لدفع مبالغ كبيرة للحصول عليها. نمّيت ولعًا خاصًا بالمؤلفات الضائعة، واهتممت بالكُتّاب الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس فترة حياتهم، ثم دُمّرت كتبهم أو حُرقت أو ضاعت بحيث لم يتبقَّ لنا منها سوى عناوينها وسيرة مؤلفيها وبعض الاقتباسات الواردة منها في كتب أخرى.

كنت أقشعر حين أتذكر أن أبا حيّان التوحيدي أحرق مؤلفاته كلها؛ بعد أن اضطره الفقر في أخريات أيامه إلى أكل حشائش وأعشاب الطريق كي يسدَّ جوعه. أتخيله وقد عاد يومًا إلى سكنه المتواضع ليجد مؤلفاته في مواجهته، فيحرقها يأسًا ونقمة لأن جيلًا يترك مثله جائعًا معوزًا غير جدير بما خطّه من كنوز.

أحمد الله على أن هذه الكنوز كانت منسوخة بالفعل، وأن النُّسّاخ ظلوا يعيدون نسخها على الدوام؛ فحفظوها من ضياع أبدي.

غير أن التوحيدي أفضل حظًا من آخرين، اختفت مؤلفاتهم من فوق سطح الأرض مثل ابن الراوندي مثلًا، الذي حلمت دومًا بالعثور على كتبه. لا أقصد ما أعاد بعض المحققين والباحثين تجميعه من كتاباته عبر مقتطفات وردت في مؤلفات من شغلوا أنفسهم بالردّ عليه وتفنيد آرائه، بل أعني كتبه الفعلية كما خطّها بنفسه.

في أحلام يقظتي، اعتدت رسم سيناريوهات عثوري على «التاج»، أو «الدامغ»، أو «الزمرد»، أو «اللؤلؤة»، ثم لا ألبث أن أفيق من خيالاتي على واقع لا مكان فيه لكتب ابن الراوندي أو لأفكاره.

في فترة ما، شاركني ولعي هذا شخص ساعدني كثيرًا؛ بحيث يمكنني اعتباره أستاذي الأول ومدربي على السير في متاهات الكتب النادرة. كان ملمًّا إلمامًا موسوعيًا بكتب التراث العربي، متعمقًا في دراسة الفِرق والمذاهب والمدارس الإسلامية المختلفة، قادرًا على الفصل بين الغث والسمين.

هو نفسه كانت له مؤلفات معظمها ممنوع من التداول، وكفَّره أحد شيوخ الأزهر؛ مما أدّى إلى ركونه إلى حياة العزلة والحذر اجتماعيًا، وإن ظلَّ فاعلًا في السجالات الفكرية العامة، يلجأ إليه الصحفيون حين يرغبون في رأي شائك مثير للجدل في هذه القضية أو تلك. تعلّم بعد تجارب مريرة ألّا يصرِّح بآرائه إلّا لقلة، يثق في جديتها، من الصحفيين والإعلاميين.

في البدء كنت أتابع مقاله الأسبوعي في إحدى الصحف اليسارية المعارضة؛ فأشعر بعقلي يضيء، وأحاول قراءة كل ما أستطيع الوصول إليه عن الأسماء والمدارس الفكرية الواردة في مقالاته.

عبره قرأت عن المعتزلة، المرجئة، الإباضيين، وإخوان الصفا لأول مرة. من خلاله تعرفت على ابن الراوندي، الأشعري، إبراهيم بن سيار النظّام، عمرو بن عبيد الباب وغيرهم. أما الحسن البصري وواصل بن عطاء والجاحظ فكنت أعرفهم منذ صادفت أسماءهم لأول مرة في المقررات الدراسية. كنت وما زلت مفتونًا بالجاحظ، وأسرتني خطبة واصل بن عطاء الخالية من الراء حين درسناها في الصف الثاني الثانوي. احتجَّ زملائي عندما طلب منّا مدرس اللغة العربية حفظها متعللين بصعوبتها. أما أنا، فحفظتها عن طيب خاطر وبلا مشقة، وحين فعلتُ بدتَ لي كأنها جزء من حياتي وتاريخي، غير أنني لم أعطِ للأمر كبير أهمية. لطالما كنت قادرًا على حفظ الأشعار والنصوص القديمة بسهولة أثارت دومًا دهشة أساتذتي.

بقراءة مقالات أستاذي المستقبلي، الذي كان يحلو للشيخ الذي كفّره وصفه بالزنديق، سعيتُ إلى مقابلته رغم الصعوبة المتوقعة. رفضت الصحيفة منحي عنوانه أو رقم هاتفه، ونظر موظف الأمن لي بريبة.

لم أيأس، ووصلتُ إلى صحفي شابٍّ ممن يثق بهم، ويسمح لهم بمحاورته. قابلت الرجل في بار «كاب دور» بوسط البلد، أنهينا سبع زجاجات «ستيلا»، وتحدثنا في مواضيع شتى قبل أن يأمن لي، ويمنحني رقم هاتف بيت «الزنديق»، كان يطلق عليه هذا اللقب، هو الآخر، لكن بمحبة واضحة.

بدا اللقب لطيفًا حين يُنطق بلسان الرضا والمحبة، فاعتمدته بدوري للإشارة إلى الرجل.

هاتفه في اليوم التالي، فأتاني صوته جافًا مشروخًا؛ ربما بفعل عقود من التدخين. لم يرتح – على ما يبدو– لحماستي ولا لكلمات المديح التي غمرته بها. قلت له إني راغب في مقابلته في مسألة لا تحتمل التأجيل. اعتذر بأنه، وقد بات على أعتاب السبعين، لم يعد يخرج إلّا مضطرًا، ولا يمكنه فتح بيته إلّا لقلة مختارة عرفها لسنوات.

مع إلحاحي، بدأ صوته يلين. طلب مني أن أترك له في استعلامات الصحيفة التي يكتب فيها صورتي الشخصية ورقم هاتفي وصورة من بطاقة هويتي، وخطاب توصية من الصحفي الذي أخبرته بأنه منحني رقم الهاتف. خلته يمزح، ثم تأكدت من جديته، حين واصل كلامه شارحًا أن هذه الأوراق سوف تصله في بيته، وحين يتأكد مما بها، سوف يتصل هو بي.

فعلت ما طلبه مني وانتظرت اتصاله. بدا لي حذره مبالغًا فيه، لكنه ضاعف من غموضه ومن شغفي بشخصيته. فكرت في البداية أنه كان بإمكانه سؤال الصحفي إن كنت فعلًا قد حصلت على رقم هاتفه منه أم لا، ثم حين زرته ولمستُ العزلة التي يفرضها على نفسه وأسرته، أدركتُ أنه يتعامل مع مسألة تكفيره بالجدية المستحقة.

في طريقي إلى بيته، لم أقدر على تخمين ما الذي ينتظرني. كنت مغمورًا بالترقب والفضول. مثَّل الرجل مزيجًا بالغ التعقيد. كان شيخًا أزهريًا خارجًا على الأزهر لدرجة رميه بالكفر والزندقة، يساريًا سعى للمصالحة بين مبادئ الماركسية وبين ما أسماه بذور الاشتراكية في الإسلام، ومفكرًا يُجيد النبش في المنسيّ والمسكوت عنه.

عن نفسي، توقعت أن أقابل ملحدًا على طريقة ملحدي بارات وسط البلد، المتباهين بأنفسهم، وبقدرتهم على الاختلاف عن السائد. كنت أعرف أن الرجل أكثر تعقيدًا وثقافة؛ وبالتالي توقعت أن يفعل هذا بطريقته الخاصة؛ بتأفف وتعقيد ومعرفة. لذا فوجئت حين دخلت شقته الواقعة في الدور الثاني من بناية بحي «الكوربة» في مصر الجديدة لأول مرة. كان شارعه هادئًا يخيم عليه الصمت. وكانت الشقة ببابين؛ أحدهما يفتح على الصالة والغرف، كما خمنت؛ لأنني لم أدخل من هذا الباب قط، والآخر يقود الداخل من بسطة السلم إلى حجرة ضيافة معدَّة للزائرين الغرباء من أمثالي.

الحجرة مفروشة بطقم صالون عتيق مُغطى بفرش أزرق سماوي، والحوائط معلق عليها آيات وسور قرآنية قصيرة منها آية «الكرسي» والمعوذتان وفاتحة الكتاب.

استقبلني الأستاذ بجلباب داكن فوقه عباءة بنية، وفي يده مسبحة من الكوك يسبِّح عليها بهمهمات لم أتبينها. بعد نصف ساعة تقريبًا، سمعت طرقًا رفيقًا على الباب الواصل بين هذه الغرفة وبين باقي الشقة، فقام الأستاذ وفتحه نصف فتحة ليحمل من امرأة منتقبة، توارى معظمها عن مجال رؤيتي، صينية القهوة. لم أعرف إن كانت هذه المرأة ابنته أم زوجته؛ بسبب نقابها الأسود الذي لم يُفصح عن أي شيء يخصها.

رغم انفتاحه الفكري وقدرته على طرح أكثر الأفكار إثارة للصدمة والجدل، بدا متشددًا اجتماعيًا - على الأقل- بدرجة لا تقلّ عن مكفِّريه.

كي أنال ثقته وأدفعه للاطمئنان لي، استعرضت أمامه ما راقني من أفكاره، وتلوت خطبة واصل بن عطاء كاملة؛ إذ كنت وما زلت

أحفظها، عن ظهر قلب. بدا مستمتعًا بمحاولاتي كي أظهر متحليًا بالذكاء الكافي لنيل شرف التلمذ على يديه.

«خلصت كل اللي عندك يا مولانا؟».

سألني حين انتهيت، ولم تغب عني السخرية المغلّفة لجملته. لم أعرف بماذا أجيبه، خفت من أي ردٌ قد يغضبه، فاكتفيت بهزِّ رأسي بالإيجاب.

«واصل أكبر بكثير من حصره في قدراته الخطابية، أو لثغته في الراء التي ركز عليها من أرادوا لفت النظر بعيدًا عن أفكاره».

هززت رأسي موافقًا، مرة أخرى، دون أن أفهم تمامًا ما يقصده الأستاذ.

أصبح التردد على بيته الكائن في مصر الجديدة طقسًا أسبوعيًا لا غنى لي عنه، وأسعدني أنه صار يحرص على موعدنا هذا بنفس درجة حرصي. عرفت هذا حين اضطررت لسفر مفاجئ لزيارة أمي في المنيا دون التمكن من إخباره. كنت أظن أنني سأعود قبل موعدي معه بوقت مناسب، وتعطل القطار، فلم أصل القاهرة يومها سوى في منتصف الليل. في الطريق نفد شحن هاتفي المحمول، وحين وصلتُ إلى سكني، وضعتُ الموبايل - مغلقًا كما هو - في الشاحن، وارتميت على فراشي ولم أفق إلّا في الصباح. عندما فتحت الهاتف فوجئت بعشر مكالمات فائتة من أستاذي، ولمَّا هاتفته بدا قلقًا، ولم يهدأ حتى حكيت له ما حدث معي منذ غادرت القاهرة حتى عدت إليها. طلب مني أن أمرَّ ببيته في الحال، وهو ما كان.

توثقت علاقتنا بعدها أكثر، صار يعتمد عليَّ في توفير ما يحتاجه من وثائق ومخطوطات قديمة، عرفني على من يتعامل معهم من

تجار وخبراء، وصرت الوسيط، أو للدقة: ساعي البريد الذي يوصل له ما يحتاجه منهم.

أسرَّ لي أنه كلما قلَّ عدد من يترددون على بيته كان هذا أفضل له ولأسرته. مع الوقت اكتشفت أن حسه الأمني أعلى مما قدرت. كلما دخلتُ بيته ظلَّ يستجوبني إن كنتُ قد لاحظت أن هناك من يتبعني، أو إن كانت هناك حركة مريبة في الشارع، أو وجه غير مألوف أمام منزله. كنت أجيبه بالنفي الواثق، وأنا أردد بيني وبين نفسي:

«يا زنديق يا حبيبي، الشارع أي شارع مليء بالوجوه غير المألوفة، هذا جزء من طبيعته وتعريفه».

في أعماقي كنت موقنًا من أن لا أحد يخطط لاغتياله، فرغم أهميته وعمق ثقافته، لا يكاد يعرفه أحد خارج نطاق المهتمين بمجال تخصصه، وعدد قراء الصحيفة التي ينشر فيها مقالاته لا يتجاوز بضعة آلاف، معظمهم ينتمي لليسار.

لم أقل له هذا طبعًا، كان من المستحيل تغيير قناعة مستقرة في أعماقه منذ عقود. لاحظت أن الإحساس بالتهديد الدائم – كأن زلزالًا على وشك ضرب عالمه بأكمله – طبع راسخ فيه. كان من السهل رفع إحساسه بالريبة والشك والتوجس.

في تلك المرحلة الفوضوية من حياتي، تعرفت على بيلًا. يضيق صدري حين أتذكرها؛ فأسعى لطرد طيفها من ذهني. يكفيني انعزالي هنا بعيدًا عن كل ما أحبّ. لا أنْسَ لي في هذا المكان، لا كتب قديمة تسلي وحدتي وتخفف من وحشتي. أتحرك في الغرفة، ذات الحمام الملحق بها، كنمر محبوس في قفص. أرتمي على السرير أو أقف أمام النافذة محدقًا في الشجرة ذات الزهور البرتقالية وبستان المانجو المجاور للمدرسة في الجهة الأخرى من السور المرتفع،

فتحضرني بيلّا مجددًا رغمًا عني، وتسطع في ذاكرتي لمعة عينيها وهي تخبرني بأنها لم ترَ حمّامًا ملحقًا بغرفة نوم من قبل.

أشعر بالوقت ثقيلًا متجمدًا. كلما تناهى إليّ وقع خطى بالخارج، تهيأت حواسي لمواجهة مرتقبة مع رفيقة سكني. ضبطتني نائمًا أسفل شجرة البومياكس في الصباح. وفقًا لها، ما كان عليّ فعل هذا، بل ليس عليّ مغادرة حجرتي سوى في أوقات معلومة للتريض في الحديقة والعودة سريعًا. لو كان الأمر بيدها لمنعتني من التحرك كما أود داخل الفيلّا المُسوَّرة. من حسن حظها أنني بالكاد أغادر غرفتي. حين أيقظني البواب، لم أنتبه إلى وجودها في البداية. وقفتْ تتابع المشهد دون كلام. بطرف عينيها وبهزة خفيفة من رأسها، طلبتْ منه أن يصحبني إلى غرفتي. تبعتنا حتى بسطة السلم الموصل إلى الطابق العلوي، ثم توقفت للرد على هاتفها المحمول. سمعتها تخبر أمها بأنها لن تقدر على زيارتها قريبًا لانشغالها بي. أغلقتُ الباب خلفي فيما تضيف أنني لستُ على ما يرام مؤخرًا. بدا صوتها مرتاحًا متخففًا من حياديته المعتادة في كلامها معي. أوقن من أنها أخَّرت صعودها إلى غرفتي عمدًا لمجرد اللعب بأعصابي. المفترض بي ألّا أعبأ بها أو أنتظرها، لكنني غير قادر على تجاهل تعليقها المحتمل على قضائي قسمًا من الليلة الماضية في العراء. مؤكد أنها في غاية الضيق والانزعاج الآن، ومع هذا لا أشعر بالذنب. أقف فقط محملقًا في الخارج، محاولًا التشاغل عن أفكاري المتلاطمة، وعن طيف بيلّا الذي باغتني فجأة بعد سنوات من غياب صاحبته عن عالمي.

- ٤ -

دخلت بيلّا عالمي كنسمة هواء مبللة بالندى، ومعبقة بعبير الورد الممزوج برائحة خشب الصندل. كنا في بدايات الألفية الثالثة، وكان الجو حارًّا خانقًا والشمس لم تغرب بعد. في الزحام لمحتها، فتبددت الحرارة وخبا الاختناق، وأضحى لهيب الشمس شعاعَ ضوء.

هذا ما شعرت به حين رأيتها للمرة الأولى بردائها الطويل ذي الألوان المبهجة، وشعرها البني الذي راحت تبعده عن رقبتها، من وقت لآخر، متضايقة من الحر والعرق، قبل أن تقرر في النهاية ربطه على هيئة ذيل حصان؛ ما سمح لبهاء وجهها أن يتجلى دون نقصان.

لم تنتبه إليّ في البداية؛ لانغماسها في التطلع، مثل الآخرين، نحو نهر الطريق مترقبة فتح إشارة المرور بعد أن أُحتجِزنا في مكاننا هذا لأكثر من ساعة ونصف. كنا قد تركنا جميعًا سيارات الأجرة وأتوبيسات النقل العام، ونزل كل منا للسير أملًا في تخطي المنطقة المغلقة هذه، والوصول إلى نقطة يمكنه منها ركوب وسيلة مواصلات أخرى، غير أنه عند نقطة تالية مُنِعنا من مواصلة التقدم؛ فوقفنا في مجموعات متفرقة منتظرين انتهاء الكابوس المسمى بالموكب الرئاسي.

كان الموكب قد مرَّ بالفعل كما خمَّنَّا؛ وبالتالي لم أفهم -عن نفسي- لماذا استمر منع السيارات من الحركة، ومنعنا نحن أيضًا من السير حتى ميدان العباسية. المهم أنني، في منطقة مواجهة لمقر

أرض المعارض الدولية بشارع صلاح سالم، لمحتُ بيلّا واقفة بين مجموعة من المنتظرين المتأففين، فسامحتُ العالم كله، ووددتُ لو ظللنا هكذا إلى ما لا نهاية: هي تواصل حركاتها وتعبيراتها الساحرة غير منتبهة لي، وأنا أتأملها غافلا عن كل ما عداها.

غير أنني نقلت اهتمامي منها، بل كدت أنساها حين لاحظت المجلد المستكين بين يديها. كانت أصابعها الرشيقة تقبض على «تفسير الأحلام الكبير» المنسوب للإمام محمد بن سيرين وأحد كتبي المفضّلة. دون تفكير، اقتربتُ منها مبتسمًا، وسألتها عن الكتاب. استأذنتها في إلقاء نظرة على محتوياته، فوافقت وقد اعترتها الدهشة.

تصفحتُه، وتوقفتُ مليًا عند حلم تحفظه روحي، عن ياسمين تجمعه الملائكة من بساتين البصرة. أعدتُ إليها مجلدها، فيما أفكر في أن لقائي بها علامة يجب اتباعها. دعوتها، حين فتحت إشارة المرور، أن نأخذ تاكسيًا معًا إلى وسط البلد، بما أنها وجهتنا معًا. اعتذرتْ بلباقة، وإن أخبرتني بأنها تتردد مساء الثلاثاء من كل أسبوع على مركز الثقافة السينمائية بشارع شريف؛ لمتابعة ما يعرضه من أفلام، وأنها ستكون سعيدة لو رأتني هناك.

لم أكن قد سمعت بهذا المركز من قبل، لكنني عزمتُ على متابعة عروضه أسبوعيًا، غير أنني لم أقدر على فعل هذا سوى بعد شهرين. انشغلت مع زنديقي الحبيب في بحث يشتغل عليه، وكلفني بمساعدته في جمع المادة والمعلومات اللازمة، ومن جانبي اعتبرتها فرصة تدريبية لا تعوض، يمكنني التعرف عبرها، من داخل المطبخ كما يقولون، على طريقته في العمل والتنقيب في غابات التراث ودروبه الموحشة.

بالتزامن مع هذا، بدأت تزورني في اليوم التالي على مقابلتي بيلّا، للمرة الأولى، أحلام تبدو كما لو كانت شذرات مترابطة من حياة متصلة. لا أقول هذا عن نزق أو طيش مني، كانت الأحلام تخبرني بالفعل بطرف من حياة شخص عاش قبل قرون.

في حلمي الأول كان كل شيء عاديًا. رأيتني في شقة المنيا، أتجادل مع أمي في شأن ما، قبل أن أغادر البيت غاضبًا. نزلت الدَّرَج محاذرًا الدرجات الزلقة والدرجة المكسورة، وخرجت من الباب الحديدي للبناية لأجده ينفتح على فضاء لا أعرفه. كان الوقت فجرًا في الشارع، والعالم غامضًا فيما ينتظر نهارًا لم يحل بعد، رغم دهشتي خطوت للأمام متحسسًا طريقي في مكان بدا لي مألوفًا وغريبًا في آن.

كانت الأرض غير مستوية تحت قدميّ، دققتُ فيها، فلاحظتُ أنني أسير داخل حقل محروث. قادني الحقل إلى كرمة يجاورها خُصّ من قصب، على مقربة منه شجيرة ياسمين، لم يفلح غبش الفجر في إخفاء أبيض زهورها. كان عدد الزهور المتكومة على الأرض أكبر بمراحل مما تحمله الأغصان.

وقفت في منتصف المسافة بين الخُصّ والياسمينة حائرًا مُشتتًا، اجتاحني إحساس بضرورة دخول الخُصّ للتفتيش فيه عن شيء أجهله، بدا الأمر كأن حياتي كلها متوقفة على هذا، لكن من ناحية أخرى كانت روحي تجرني جرًا نحو الموقع المغطى بالياسمين الميت.

اتبعت نداء روحي بعد تردد. جثوتُ على ركبتيَّ، وتحسستُ الزهور المتساقطة كمن يلمس جسدًا ويطمئن عليه، ثم غلبني البكاء فجأة، ومعه غامت رؤيتي وتلاشى حلمي.

في ليلة تالية، كنت في البصرة، مرتديًا عباءة وعمامة فيما أعبر الأهوار في قارب وبجانبي شخص ينصت باهتمام إلى ما أقول. لم تكن ملامحه واضحة، ولم يكن كلامي منطوقًا. كنت فقط كمن يحرك شفتيه، غير أنني في حلمي كنت مدركًا أني أبوح لرفيقي هذا بأسرار نفسي، وأن ردوده -على اقتضابها- كانت مفعمة بحكمة مطمئنة.

هكذا راحت رؤاي تتعاقب عارضة عليّ طرفًا من خبر حياة توارت وطمرها ركام النسيان لشخص، كأنه أنا، يُدعى يزيد بن أبيه. مرة أراني أنسج سلالًا وحُصرًا من الخوص بمهارة لا أدري متى ولا من أين اكتسبتها، وثانية أجدني أشتري سمكًا مشويًا وخبزًا من باعة السمك في مربد البصرة، وأجلس لآكله مع رفيقي الدائم فيما نحن منهمكان في نقاش حام، ومرة ثالثة أراني في مجلس الحسن البصري، أنصتُ مع رفيقي وآخرين للإمام وهو يلقي علينا قبسًا من فيض نوره.

ما أثار دهشتي أنني خلال أحلامي كنت أعرف الأماكن وأسماء كل من معي وعلاقتي بهم إلّا رفيقي المقرّب، لم أكن حتى قادرًا على استبانة ملامحه بوضوح، ولم يرد اسمه على بالي. كنت عارفًا فقط أننا لا نكاد ننفصل وأنه يناديني كالآخرين باسم يزيد، فأرد عليه في الحال.

لم تساعدني تلك الشذرات التي أمدتني بها مناماتي، بل على العكس ضاعفت تشوشي، وأكسبتني أرقًا مستجدًا عليّ. كنت أحيانًا أخاف النوم كي لا تكشف لي أحلامي عما قد لا يسرني.

حين بدأتُ في لقاء يلا بشكل شبه منتظم، لاحظتُ أنها – دون قصد منها- تحفّز خيالي وذاكرتي على القبض على شيء فاتني معرفته من قديم. كانت في عينيها لمعة تشبه لذة الاكتشافات

الأولى. لطالما رأيتُ بداخلها طفلة مندهشة على الدوام. إن قلت لها مثلًا: الشمس تشرق من الشرق، فسوف تتسع عيناها تعجبًا، وترد بلا تفكير: فعلًا؟! وتنظر نحوي كما لو كانت تنتظر تأكيدًا إضافيًا.

مع الوقت، بدأت أعي أنها لا تكاد تنتبه – في أحيان كثيرة – إلى ما يخبرها به الآخرون. في الغالب تكون شاردة فيما لا يمكنهم تخمينه، وقد ينبع اندهاشها من اكتشافها المفاجئ لوجودهم أو من تذكرها أنهم في الجوار، متطفلون على عالمها.

في البداية لم أبح لها بشيء عن أحلامي، بطبيعة الحال، ولم ألمّح لها حتى بهواجسي ومشكلاتي، ومع هذا كل مرة ألتقيها فيها ونثرثر في موضوعات لا علاقة لها بخصوصياتنا، كنتُ أشعر بأنني قد اقتربتُ أكثر من عالم مناماتي ونأيتُ أكثر عن واقعي.

لطالما ضايقتني طريقتها في نطق اسمي، لم أعرف قط سبب إصرارها على الضغط على الكسرة أسفل حرف الهاء، فتحول اسمي إلى هِشام بدلًا من هِشام! بدورها لم تفهم - في البداية- لماذا أناديها بـ«بيلا»، وليس باسمها الحقيقي ميرفت.

ظنَّت أن بيلّا حبيبة سابقة تشبهها أو شيئًا من هذا القبيل؛ فاضطررت إلى شرح دافعي، وأريتها صورًا ولوحات تخصّ بيلّا الأصلية، وليتني لم أفعل.

ليس من الحكمة البكاء على اللبن المسكوب. رغم كل شيء، أشعر نحوها بامتنان حقيقي؛ لأنها كانت جسرًا عبرت فوقه صوب الضفة الأخرى من الحياة. لا تكاد تخطر على بالي الآن إلّا مصحوبة بانقباض قلبي فيما أقضي أيامًا يشبه بعضها بعضًا؛ محورها غرفة محايدة وشجرة بزهور برتقالية وإطلالة على بستان

مانجو يجاور مدرسة عرفتُ أنها تخصّ الجالية اليابانية في القاهرة. وكلما نجحتُ في إبعاد ذكرى بيلّا عن رأسي، سطعت تفاصيل تلك الحياة المتراتبة لي في أحلامي. صحيح أنها متقطعة تعتورها الثغرات، لكن ما يحضرني منها شديد الوضوح.

لم أعد حتى في حاجة إلى الأحلام كي تنقلني إلى عصر مضى ومدينة صارت أثرًا بعد عين وشُيِّدت قريبة لها تحمل اسمها نفسه على مقربة من موقعها الأول، يكفي أن أغمض عينيّ وأصفي ذهني حتى تتهادى الذكريات بداخلي، وتبدو كما لو كانت مرئية لا يفصلني عنها زمان ولا مكان.

بتُّ أحفظ كثيرًا من تفاصيل دار متقشفة: نوافذ مغلقة معظم الوقت وصُرّة محكمة الربط مخفية خلف صندوق ملابس. أعرف مجلس الحسن البصري، وأكاد أرى واصل بن عطاء ومربد البصرة وأهوارها وسوق الخواصين وجلسات النتاخين. لا يمكن أن يكون هذا الرسم التفصيلي لمدينة بأحيائها وشواطئها وأسواقها ونخيلها مجرد تهيؤات.

أنا هشام خطّاب.

هذا ما اعتدتُ ترديده في سري في البداية؛ لتذكير نفسي بهويتي وإنعاش ذاكرتي وحثها على العمل بكامل طاقتها، بعد أن لاحظت ميلها للخفوت حين يتعلق الأمر بذكرياتي القريبة.

ثم بدأ يحضرني بشكل واضح اسم يزيد بن أبيه، وسكنني الحلم القديم عن ياسمين تجمعه الملائكة من بساتين البصرة، الحلم الذي فسّره الحسن البصري - وهو مطرق الرأس - بذهاب علماء المدينة، وصمت بعدها لفترة لا يستهان بها.

كل ما عدا هذا كان يتراءى لمخيلتي كسديم يملأ رأسي ويطفو بداخلي. سديم أكاد أراه، يبدو لي كأنما فرّغ جسدي من الأعضاء الداخلية واحتلّ مكانها، حاجبًا عني كل ما يقع خلفه.

في مرحلة اقترابي من الزنديق؛ أستاذي ودليلي في مجاهل التراث وكتبه النادرة، سألته إن كان قد صادف يومًا اسم يزيد بن أبيه في أي من المؤلفات التي تتناول المعتزلة أو الحسن البصري أو البصرة في القرن الثاني الهجري، فقطب جبينه مفكرًا قبل أن يسألني:

«تقصد زياد بن أبيه؟ بس ده عاش قبل كده».

أجبته بأني أعرف كل ما تهمني معرفته عن زياد بن أبيه، لكنني أرغب في معرفة كل شيء عن يزيد بن أبيه. أضفت أن كل ما أعرفه عنه أنه كان من رواد مجلس الحسن البصري، ثم انضم لاحقًا إلى المعتزلة الأوائل وأصبح مقربًا من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الباب، لكنه بقيَ مغمورًا، لا يكاد يُعرف عنه شيء.

برقت عينا أستاذي، وتفحصني باهتمام لم أعهده فيه من قبل، إذ لطالما بدا لي كأن لا شيء قادرًا على نيل كامل اهتمامه، فذهنه دومًا مشغول بأمور أخرى لا يمكن لمن أمامه الحدس بها.

شرد للحظات، ثم أمطرني بسيل من الأسئلة: أين صادفت الاسم، ومتى؟ وما أهميته إن كان مغمورًا إلى هذه الدرجة؟ ولماذا أنا مهتم به؟

بدت نبرته أقرب إلى نبرة محقق بوليس يستجوب مجرمًا. ذكرني هذا ببدايات معرفتي به. حاولت المراوغة قدر استطاعتي، قلت إنني صادفت الاسم قبل مدة في مُؤلَّف ضاع عنوانه من ذاكرتي، وإنني انتبهت له لخلطي - في البداية- بين حامله وبين زياد بن أبيه، وحين

فطنتُ لخطئي بتذكري أن زياذا رحل في العام الثالث والخمسين من الهجرة، تزايد فضولي لمعرفة معلومات أكثر عن هذا المجهول.

سعيتُ إلى ضخ بعض المرح في صوتي، والتظاهر بأن فضولي كبائع كتب نادرة هو ما يقودني ويشعرني بأن الشخص المقصود قد يكون جديرًا بالاهتمام.

فكّر الزنديق لهنيهة، ثم وعد بأنه سوف يخبرني إن وجد أي شيء عن يزيد هذا. لم أتكلم معه عنه لفترة لا بأس بها. بعد استجوابه لي، فضّلت أن أبحث بنفسي، وحمدت الله على أنّي لم أتورط في توضيح سبب اهتمامي برجل لم أكن حتى تلك اللحظة متيقنًا تمام اليقين من أنه قد وُجد يومًا.

بطريقته هذه، لم يكن ليصدقني. كان سيعاملني كمجنون، لا كباحث واعد مثلما كان يحلو له وصفي. فضلت التَّقية كعادتي، تَقيّة أعرف عمق تغلغلها في روحي منذ كنت بذرة في رحم معتم.

لم يفتح زنديقي هذا الموضوع مجددًا إلّا لاحقًا، وقتها كنتُ قد ألممتُ بالفعل بالكثير من تفاصيل حياة يزيد بن أبيه وعلاقتها بي، ليس يقينًا وإنما حدس وظنون وهواجس.

شذرات من حياة زياد بن أبيه

-١-

«الحمد لله القديم بلا غاية، الباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوّه، ودنا في عُلوّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خَلَق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بل أنشأه ابتداعًا، وعدّله اصطناعًا، فأحسن كلَّ شيء خلقه وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدَلَّ على ألوهيَّته، فسبحانه لا معقِّب لحكمه، ولا دافع لقضائه تواضع كلُّ شيء لعظمته، وذلَّ كلُّ شيء لسلطانه، ووسِعَ كلَّ شيء فضلُهُ، لا يعزُبُ عنه مثقال حبَّةٍ وهو السميع العليم».

بكلمات واصل بن عطاء الغزّال، أبدأ أنا يزيد بن أبيه الخوّاص البصري كتابي هذا. لا أعرف إلى من أوجهه، غير أنه لا بديل لي عن تدوينه حتى وإن لم يطّلع عليه سواي. يكفيني تطهير روحي مما علق بها من أدران.

في دكاني بسوق الخواصين، صرت أعمل كالمجذوب، راغبًا في إفناء جسدي في نسج السلال والحصران نهارًا، وفي قيام الليل والتعبد ليلًا. لا يكاد يرتاح لي جنب في الرقاد. أبقى ساهدًا، في الوقت القليل المخصص لنومي. أحاذر التقلب من جنب إلى آخر كي لا أقلق نوم سجية؛ زوجتي.

في الدكان، ينسيني نسج الخوص بعضَ عذاباتي وأحزاني،

عذابات لا يمكنني البوح بها لأحد، حتى لمالك بن عُدي النسّاخ؛ مفسّر أحلامي، ورفيق فتوتي وصباي.

أحب البصرة؛ مدينتي المنتقاة بإرادتي وقلبي. لا أفكر في غيرها بديلًا عنها، ولا أتخيل نفسي في حاضرة سواها. أشعر بأن جسدي معزول من نخيلها، ولحمي نتاج تمرها. ربما لهذا أشغف بمهنتي كخوّاص؛ لأنني أتعامل -عبرها- مع أكثر ما أحبه في بصرتي؛ خوص النخيل، أطوّعه وأشكّل منه ما يروقني من أشكال. لا أقصد فقط السلال والحصران وغيرها من أدوات نافعة لسائر الناس، بل أقصد أيضًا العابًا صغيرة أنسجها بالخوص وأحرص على توزيعها على أطفال النساء المعوزات ممن يلعبون في الأسواق أو يسيرون خلف أمهاتهم من حانوت لآخر.

قد أعطي هذه المرأة أو تلك حصيرة أو سلة مجانية، يسعها استخدامها أو بيعها والاستفادة بثمنها لشراء خبز أو أي شيء آخر لصغارها، غير أن ما يسعدني حقًا هو رؤية الفرحة في عيون الأطفال وهم يقبضون على لعب الخوص التي نسجتها خصيصًا لهم.

حينئذ فقط أفكر في نفسي كشخص خيّر، وأتمنى لو كنت ظللت الشابّ المخلص عينه الذي ظننت نفسي إياه في السابق. تعيدني السعادة في أعين الأطفال إلى براءتي المفقودة؛ فأستعيد أحلامي العريضة وآمالي الجامحة قبل سنوات. وإذ أفعل يستحضر ذهني واصل بن عطاء لا الحسن البصري؛ شيخي الأول.

يحضرني واصل؛ لأنني انتقلت من مجلس البصري إلى مجلسه وسرت على دربه، على الأقل فيما يخصّ الأخذ بمبدأ المنزلة بين المنزلتين ونفي القدر. أتذكر سجالات حامية بيني وبين رفيقي

مالك بن عُدي النشاخ، الذي اقتنع بما ذهب إليه واصل، إلّا أنه فضَّل التَّقية لبعض الوقت.

عن نفسي، اتبعت واصلًا منذ اعتزل مجلس البصري، أما النشاخ فلم ينحز إلى أبي حذيفة سوى عقب المناظرة بينه وبين عمرو بن عبيد الباب.

غير أن هذه حواشٍ لا يربطها بمتن ما أرغب في تدوينه إلّا أقلّ القليل. كنت أقول إني أستحضر واصلًا لا الحسن البصري الآن؛ لأن حياته بأحداثها ونوازلها أكثر اتصالًا بحياتي وما جرى لي.

إبان انتظامي في ارتياد مجلس إمام الدين، كانت عيناي تتجهان رغمًا عني نحو واصل. لطالما أسرتني سكينته وصمته الدائم. حين يذكر البصري فكرة تعجبني أو جملة تروقني، كان بصري يتجه فورًا صوب واصل راغبًا في استطلاع تأثير الفكرة أو الجملة عليه، لكن وجهه المستكين الفارق فيما لا أعلم كان يزيد من حيرتي لأنه لا يعكس آيًا من أفكار صاحبه الداخلية، أفكار أثق من كونها صاخبة مؤّارة كريح عاتية تعصف برمال الكثبان والصحاري.

خارج مجالس العلم أيضًا، اعتدت متابعة واصل في مجلسه شبه الدائم بسوق الغَزَّالين؛ رغبة منه في معرفة النساء المعوزات كي يخصهن بأموال الزكاة والصدقة.

يسعني الآن القول إن حرصي على مدّ هؤلاء النسوة ببعض مصنوعاتي وإهداء صغارهن ألعابًا نسجتها بنفسي، محض محاولة مني لاتباع تقليد أرساه الغزَّال.

والآن وبعد رحيله بسنوات قلائل، أعرف أن يوم وفاته كان اليوم الأهم في حياتي بحيث لن يفارق ذاكرتي ما حييت، وسيجعل واصلًا بكل ما يخصه منطبعًا فيها حتى يواري التراب جسدي.

في تلك الفترة، كان الموت طيفًا يخيّم على البصرة، كأنه هواء عليها تتنفسه شاءت أم أبت. أضحى الموت طوفانًا يحصد العشرات كل يوم. جاء مرتديًا مسوح طاعون لم يُبقِ ولم يذر. وكان أبو حذيفة من بين ضحاياه.

لا يمكنني تذكر تلك الأيام سوى مصحوبة برجفة تهزني حتى العظم. تخيلت أن اقتراب الهلاك وسهولته، على هذا النحو، عاملان مقرِّبان للتقوى والإيمان، بيد أن التجربة أبدت لي سذاجتي.

في تلك الفترة، اكتست الوجوه بالوجوم والرجاء واليأس في آنٍ. ثمة من تمسكوا بحبل التقوى مبتهلين إلى الله أن ينجيهم أو يحتسبهم شهداء إن ماتوا، وثمة من كفروا حين لم تُستجب دعواتهم بنجاة قريب أو حبيب، ومَن عجزوا عن فهم كيف تستقيم الرأفة والرحمة مع كل هذه العذابات والآلام.

أما أنا، فكنت موزعًا بين المتناقضات. تتصارع على فؤادي أهواء شتى لا يكاد يربط بينها رابط. ملأتني الشكوك والوساوس. كرهتُ عجزي البشري، وشككتُ في إيماني بنفي القدر. فصحيح أن الإنسان مسئول عن أفعاله وأنه مخيَّر لا مُسيَّر، في مذهبي، غير أن مسئوليته وقدرته على الاختيار تكادان تتلاشيان إزاء هول مماثل.

الطاعون قدر لا قِبل للإنسان على مواجهته أو تحديه، هو إما يهلك طامعًا في جنة الخلد وإما كافرًا بها، وإما ينجو لا لمهارة منه بل لأن يد القدر كتبته ضمن الناجين.

اعتدت التنقل بين أرجاء البصرة، كعادتي، غير آبهٍ بالخطر. كنت في حاجة إلى أن أثبت لنفسي، على الأقل، أنني مسئول بدرجة ما عمّا قد يصير لي. إن ضربني الطاعون، فلأنني لم أحذره أو أحتط له.

جولاتي في أسواق وأزقة شبه خالية أتاحت لي رؤية مدينتي في أقصى درجات هشاشتها وضعفها. كان بعض الناس يتركون بيوتهم مفتوحة، كأنما يرحبون بموت لا مفرَّ منه، فيما آخرون يغلقون الأبواب والنوافذ خوفًا من تطاير أرواحهم وصعودها إلى السماء في غفلة منهم. وأنا كنت أطيل الإنصات أمام البيوت المغلقة فلا يتناهى إلى سمعي سوى الصمت، وأحاول اختلاس النظر من خلل الأبواب المفتوحة، فلا أبصر إلّا الفراغ.

حتى جاء يوم، اليوم نفسه الذي انتقل فيه واصل إلى دار البقاء جراء الطاعون، وتجرأتُ على دخول أحد هذه البيوت. كان على حدود المدينة، خارج دائرة الوباء، بحسب ما قدرت. كان بيتًا فخمًا محاطًا بحديقة.

في هذا البيت تغيرت حياتي، لكن تلك قصة لا أجد في نفسي القدرة على حكيها. يتطلب الأمر قدرًا يستعصي عليَّ من الجَلَد والشجاعة.

ما أقدر على البوح به فقط، أني علمت - ما إن عدت إلى بيتي - برحيل واصل بن عطاء ضمن من أخذهم الطاعون في طريقه. في تلك الليلة أصابتني حمى خلتها مقدمات طاعون قادم لمعاقبتي. رحت أهذي بما لا أدري، متمنيًا لو كانت محبية حاضرة كي تعدل الفراش تحتي، وتغسل لي وجهي وجسدي بماءٍ بارد، لكنها كانت تبيت ليلتها عند أمها.

طوال الوقت كان حلمي القديم حاضرًا في رأسي، وظلَّ طيفه ملازمًا لصحوي. كنت أكرره كأنما أختبره وأراه من جديد. عدد لا يُحصى من ملائكة تقطف الياسمين، غير أنها لم تعد تقطفه من بساتين البصرة في المطلق، بل من حديقة البيت الذي دخلته دون استئذان أو رقيب.

- ٢ -

كنت جالسًا، أنا الفقير إلى الله مالك بن عُدي النسّاخ، في مجلس شيخ الدين الإمام الحسن البصري، حين أقرّ واصل بن عطاء الغَزّال بمبدأ المنزلة بين المنزلتين. كنت صبيًا أنصتُ مبهورًا إلى آراء شيخي الحسن وفتاواه، يرهبني الحزن الساكن في عينيه، والخوف المتربص به. اعتدتُ أن أسأل نفسي: كيف يخاف من له هذا العلم، ومن يتمتع بهذا الزهد؟! كيف يخشى مَن مثله النار أو بطش السلطة؟! لطالما فهمتُ الحزن، أما الخوف فهو ما لم أتَفَهَّمه مع أنه أكثر ما اختبرته.

كان يجذبني أيضًا صمت الغَزّال. لم أرَ قط شخصًا يؤثر الصمت على الكلام مثله. في تلك الفترة، اعتاد يزيد بن أبيه المواظبة هو الآخر على تلقي العلم عن الحسن البصري. جمعتنا رفقة التلمذ على يد شيخ واحد، والشغف بالأحلام، هو متلقيها وأنا مفسرها. لكن في تلك المرحلة الأولى لم أكن مفسر أحلامه، كنت أسمعه يسردها على البصري دون أن أتكلم حتى لو أوجز الأخير ولم يطلعه على كامل التأويل لسبب أو لآخر. من أنا حتى أعدِّل على ما قاله شيخي وإمامي؟! كنت ألتزم الصمت، موقنًا بأن شيخنا أحجم عن إطلاع يزيد على كل دلالات رؤياه لسبب وجيه، تمامًا مثل سبب إحجامي عن إطلاعه هو على مدى براعتي في تأويل الرؤى والأحلام. حتى

تلك الفترة، كان ذاك سري الخاص؛ أستمتع بإسراره في داخلي وإنضاجه على مهل، ربما مثلما كان الغزّال ينضج منهج الاعتزال في عقله في أثناء صمته الطويل بمجلس البصري.

أنفقت صباي وشبابي مخمورًا بفكرة أنني أعيش في مركز المعمورة؛ إذ كنت أرى أن مدينتي محور الدنيا، فيها يُكتب التاريخ وتمور العقول النابهة وترتعش القلوب ترقبًا واستثارةً. كم غبطتُ نفسي، على أنني أعاصر البصري وواصل بن عطاء وبشار بن برد والخليل بن أحمد الفراهيدي وأبا عمرو بن العلاء، وأنتمي إلى مدينتهم نفسها

في تلك الأثناء، كنت غرًا متنشيًا آمنًا من بغتات الدهر، واثقًا من أن القدر لا يخبئ لي سوى كل خير، موقنًا من أن اسمي سوف يوضع يومًا -لا محالة- وسط هؤلاء العلماء والأئمة. متسلحًا ببراءتي وحسن ظني بنفسي وبالعالم رحت أنهل ما أستطيع نهله من معارف وعلوم، أحببت التتلمذ على يد كل من يمكنه تعليمي ولو حرفًا واحدًا. وعاهدت نفسي على عدم الإعلان عن موهبتي في تفسير الأحلام إلّا حين يحين الوقت الملائم. انتظرت أوان القطاف، وفاتتني نقطة جوهرية؛ أنني لا أكاد أحلم، ويزيد بن أبيه نومه مغمور بأحلام يتحقق معظمها.

أقول إنني شهدتُ على إعلان أبي حذيفة الغزّال إيمانه بالمنزلة بين المنزلتين، ثم يتوه عقلي ويأخذني كل مأخذ بعيدًا عمَّا أرغب فعلًا في قوله. مُرادي ومبتغاي هنا تلك اللحظة الفاصلة في حياتي وحياة كثير ممن أعرفهم، حتى لو لم يدركوا أنها قد أثّرت في مجرى حيواتهم إلى هذه الدرجة. يكفي إدراكي أنا - وأعوذ بالله، المنزه عن كل عيب، من كلمة أنا- تأثير تلك اللحظة.

كنا، أعزكم الله، في مجلس الحسن البصري حين جاء رجل يسأل إمام الدين عن أصحاب الكبائر، أهُم كفار خارجون عن الملة كما يرى وعيدية الخوارج، أم أن الكبيرة لا تضرّ مع الإيمان كما يؤمن المرجئة؟! وقبل أن يجيب البصري، استبقه واصل معلنًا أنه لا يقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، ولا كافر مطلقًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. وما إن رد بهذا حتى اعتزلنا إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد.

شأني شأن غيري، أدهشني استباق أبي حذيفة إمام الدين بالرد برأي يخالف رأيه الخاص بأن صاحب الكبيرة مؤمن منافق، لكنني لم أعطِ للأمر كبير اهتمام في حينه.

بدأ انشغالي بالمسألة، مع انضمام عمرو بن عبيد الباب إلى الغزّال، وهو من كان مداومًا على السخرية من مذهبه الجديد وطول عنقه، ألم يكن هو القائل: «لا يصلح هذا ما دامت له هذه الرقبة»؟!

حضرتُ المناظرة بينهما، وشهدتُ على انسحاب الباب منها وإقراره بما ذهب إليه الغزّال من رأي. مثل عمرو بن عبيد، أخذتُ بفصاحة الغزّال ووضوح منطقه وقدرته على الإقناع. رحتُ أردد خلف ابن عبيد الباب في سري: «ما بيني وبين الحق عداوة، والقول قولك، فليشهد عليّ من حضر أني تارك المذهب الذي كنت أذهب إليه، من نفاق صاحب الكبيرة من أهل الصلاة، قائل بقول أبي حذيفة في ذلك، وأني قد اعتزلت مذهب الحسن في هذا الباب».

أعلنها عمرو بن عبيد الباب مدوية وانضمّ إلى واصل في الحال، فيما أسررتها في نفسي إلى حين، ثم تنامى اهتمامي بالمعتزلة، وإحساسي بقرابة تجمعني بهم مع إطلاعي على رأيهم الخاص بنفي القدر ونفي الصفات عن الله جلّ شأنه.

حين أستعيد ذلك، بعد كل هذه السنوات، أشعر أن هذا الجدل يخصني بشكل شخصي، وأن ذاك الزمان من الدهر، المؤار بالفكر والتنوع والاختلاف كان إطارًا يؤطر قصتي الخاصة؛ فيوضحها ويضيئها دون حاجة إلى الشرح، فأنا مرتكب الكبائر أقع في منزلةٍ وسطى بين الإيمان والكفر في رأي المعتزلة، في حين أنني لا أخرج من زمرة المؤمنين وإن عُددتُ منافقًا في مذهب إمام الدين الحسن البصري.

أومن، شأني شأن المعتزلة، بنفي القدر؛ فوحدي مسؤول عن أفعالي وآثامي. كان في وسعي مقاومة الإغراء واتباع الصراط المستقيم الذي بدا لي واضحًا مشعًّا، ومع هذا حدث عنه، واتصعت لشهوةٍ زائلةٍ أفقدتني عقلي لبضعة أشهر قضيتها سكران لا أعقل أين أنا ولا ماذا دهاني. كنتُ كالمغلوب على عقله، المُسَخَّر لإظهار عيبه.

فكرة أنني مُسَيَّر لا مُخَيَّر قد تريحني قليلًا وتعفيني من بعض المسؤولية، لكن مع إيماني القارّ بنفي القدر، أراها خداعًا للذات لا أكثر ولا أقل. فأنا من خصَّ نفسه بالشقوة، ووضعها في بلاء وابتلاء وأوردها حياض الهلاك والردى.

لا أكاد أصدق، أبقاكم الله وحفظكم من الزلل، أن هنيهة زمنية منفلتة، بإمكانها تغيير حياة بأسرها، ونقل عابد زاهد، من خانة المؤمنين إلى خانة الكفار، أو إلى المنزلة بين المنزلتين. إن هذا مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول.

لا يتخيلن أحدكم أنني انتقلتُ من مواقع الصلاح إلى مواقع الزلل فقط حين نظرتُ إلى مُجية بعين الشهوة لأول مرة، بل سبقتْ لحظة زللي ذلك بفترة أكبر. بدأتْ حين تسلل الحسد من يزيد بن أبيه إلى نفسي فلم أردعها، بل سمحت لها أن ترعى

هذا الحسد وتنمبه، بحيث استحال حقدًا وبغضًا، حتى لو كابرت وادعيت خلاف ذلك في حينه.

بعد انقضاء كل شيء، أفكر في أنني كنت أحمق غرًا حتى في حسدي؛ بحيث لم أفطن إلى مكمن قوتي وتميزي. كان يزيد في حاجة إلى الأحلام كي يتنبأ بالمستقبل، ولم يكن بقادر حتى على تأويلها بنفسه، تظل بالنسبة إليه رموزًا مستغلقة تحتاج إليّ، أو إلى من يماثلني علمًا؛ كي يفسرها ويمنحها المعنى. أما أنا - وأعوذ بالسميع العليم من كلمة أنا- فكنت أحدس بأشياء وأحداث وتقع فعلًا دون وساطة الأحلام. حدست، مثلًا، بأن الوئام بين بشّار بن برد والمعتزلة زائل لا دائم. كان بشار مفقودًا من خامة مغايرة لخامتهم. هم أهل فكر وفلسفة وهو رجل عاطفة يقوده الشعر إلى أراضٍ غير متوقعة، فيتبعه دونما تردد أو وجل. كان الشعر دليله ومرشده وعصا يتوكأ عليها في ليل عماه الطويل.

عندما سمعت أبياته المادحة لتفوق أبي حذيفة على خالد بن صفوان وشبيب بن شبة، في خطبته التي ارتجلها - خالية من الراء- أمام والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، أيقنتُ أن أبيات الهجاء قادمة لا محالة، وصدق ما ذهبت إليه.

قبعد:

«تكلف الأقوام والأقوام قد حلفوا/ وحبَّروا خطبًا ناهيك من خطب
فقام مرتجلًا تغلي بديهته/ كمرجل القين لمّا حف باللهب».

ثم:

«ما لي أشايع غَزّالًا له عنق/ كنقنق الدو إن ولّى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم/ أتكفرون رجالًا كفروا رجلا؟».

كانا معًا من مرتادي مجلس الحسن البصري، شأني وشأن يزيد بن أبيه، لكنهما كانا منا في منزلة الشيخ للمريد. كنت ويزيد أصغر مرتادي حلقة إمام الدين في تلك الفترة. ومثلما تفرق الغزَّال وبشَّار الأعمى، افترقت ويزيد بعد سنوات من الرفقة والوداد. لكن حتى وإن كفَّر واصل بشَّارًا، وهجا الأخيرُ الأولَ، يظلّ خلافهما خلافًا فكريًا وعقائديًا، ففي النهاية لم يكن واصل من أخرج بشَّارًا من البصرة ، بل عمرو بن عبيد الباب من فعل. أما ما جرى بيني وبين يزيد فيقع في خانة الغيلة والغدر والخطايا.

لم يُبلغني حدسي بهذا في البداية. كان حدسي بليغًا مفوهًا فيما يتعلق بالآخرين، معتمًا صامتًا حدَّ الخرس في كل ما يخصني. في شيخوختي الممتدة مثلًا، كان حدسي ينشط كلما رأيت ذاك الصبي الذي اعتاد بيع السمك المشوي والخبز مع أمه. شيء ما فيه، كان يشحذ قدراتي ويحمسني. أيقنتُ مبكرًا، لن أقول حدست، أنه سيكون ذا شأن عظيم. لمعة عينيه الجاحظتين المحدقتين بتركيز أخبرتني أنه من خامة قادرة على البقاء وعبور حواجز المكان والزمان.

لم أرَ من ينافسه في محبة الكتب، والانهمام بالقراءة والكتابة. وطال بي العمر حتى رأيت تحقق يقيني بأنه نسيج وحده وفريد دهره. كنت وما زلت أجله وأقدره، وأعظم من شأنه إذا سمعت من يتقوّل عليه. عشتُ حتى شهدت على من يرغب في الاستعاضة عن نعيم الجنة بقراءة مؤلفاته؛ إذ تكفيه رفقتها كي يشعر بأنه في الفردوس. وسمعت بأذنيَّ من يعيره بسواد بشرته وجحوظ عينيه ودمامة خلقته. لا يعرف ذاك الأحمق أن في الألمعية حسنًا لا يعادله حسنٌ آخر.

أقول إن حدسي لطالما خانني وتخلى عني في كل ما يخصّ مستقبلي، لكن أكبر خياناته تجلت حين أوهمني بأنّي سوف أصير

يومًا في مصاف واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الباب. كان هذا أشبه ببرق خُلَّب لا غيث فيه. فما كان مقدرًا لي أن أبلغ هذه المكانة قط، وليس ليزيد أو مجيبة أو أي مخلوق آخر ذنب في هذا. الذنب يقع على الخامة التي جُبلت منها. فكل مخلوق جُبل من قماشة تختلف عن غيره، وقماشتي اهترأت في غير موضع.

لا أقصد بهذا – حاشا لله جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه – أن ثمة عيبًا في خَلْقي، أو أنني كنت مجبرًا مُسَيَّرًا، أعني فقط أنّي لم أضيِّع فرصة واتتني لإضعاف قماشة عقلي وملئها بالثغرات والثقوب. بإرادتي ونزقي وعدم تعقلي شققتُ طريقي، وغمرتها بالحصى والأشواك، فأنَّى لي التشكي من مشقة المسير؟!

لطالما فتنتني غابات البردي والقصب المُزَنَّرة للبصرة. اعتدتُ تأملها فيما أعبر الأهوار بالقارب بصحبة يزيد بن أبيه. أنصتُّ إلى همسه في أذني بما ترسب في ذاكرته من منامات الليلة السابقة. أكاد أبصر رؤاه وأتشبع بها، أترجمها إلى تأويلها المناسبة. ما أقوم به وأتحراه ترجمة مستمرة لما يتراءى له وللآخرين.

الحمد لله كما هو أهل لذلك، وتعالاه عما يعرف به المعرفون، راضٍ أنا بقضائه، وإن كانت رؤيتي قد غامت وغابت عني حكمته تعالى في أن أُحرَم أنا مفسر الأحلام، من الأحلام؛ فنومي إغماءات متكررة، أفيق منها كالعائد من الموت.

وقتها لم أعرف هل أحقد على يزيد بن أبيه لتمتعه بهذه الخصلة التي تدنيه من منزلة النبوة، أم أشفق عليه ممَّا تسببه له من شقاء!

أشرد عنه في صفحة الأهوار الماثلة أمام ناظري، فلا ينتبه إلى شرودي. ينظر لي نظرة من يدرك أن حياته معلقة بكلمة قد أنطق بها.

أبتاع سمكًا مشويًا وخبزًا من باعة السمك المنتشرين على شواطئ البصرة، ونجلس لنأكل معًا على مقربة. يحدثني عن يومه في سوق الخواصين، وأحدثه عن يومي كنَسّاخ للكتب والمخطوطات. أحكي له عن تبرمي حين أجدني مضطرًا لنسخ مؤلفات هي والهراء سواء، وحماسني وشغفي حين أُكلَّف بنسخ عمل المعي. أشعر حينذاك أنّي أكاد أشارك مؤلفه في عملية الخلق والإبداع.

ينصت لي يزيد باهتمام فيما يأكل، ثم يخبرني بأن نسج الخوص، بالنسبة إليه، نوع من الإبداع، وأنه يشغل عقله في أثناء النسج إما بالذكر والاستغفار وإما بالتفكير في مسائل عقلية؛ ممّا يُطرح في مجلس واصل بن عطاء الغزّال.

لا أبوح له، بأنّي أطمح إلى التأليف في المستقبل القريب. كعادتي، أُبطِن الأشياء المهمة، ليس عن عدم ثقة في رفيقي، إنما فقط لأن من شبَّ على شيء شابَ عليه، وقد علمتني الحياة التَّقية منذ الصغر.

بعد أن ننتهي من الأكل يسرد عليّ يزيد فحوى ما حلم به في الليلة السابقة، ويستفسر مني عن تأويل هذا الرمز أو ذاك. يبدو جذلًا فيما أفسر له الأشياء بناءً على ما ذُكِر عنها في كتاب الله تعالى، أو وفقًا لأصلها اللغوي. تشرد عيناه بعيدًا، فألمح فيهما تشوق طفل تغلب عليه سلامة الطوية.

يقول إنه محظوظ لأنه وُلِد في هذا العصر وهذه المدينة. ينظر نحو المشرق وتغيم عيناه بحزن مفاجئ، فأحدس بأنه يحاول تخيل البقاع التي أتت منها أمه. لم يكن واثقًا من موطنها الحقيقي -على وجه اليقين- أهو خراسان، أم السِّند.

-٣-

أنا عبد الله الطامع في عفوه؛ أبو حذيفة؛ واصل بن عطاء الغَزَّال؛ غَزَّال الخيط أو الكلمات والمعنى إن شئتم. أجلس في السوق كامل اليوم بجانب الغَزَّالين، أتلوم النساء المعوزات بغية مساعدتهن.

صامتًا أظل حذّ أن من ليس لهم بي علم يظنون بي البكم. علمتني الحياة تجنب كل ما يعيقني، واعتزال كل ما لن يضيف إلى ديني. لا أبتغي من دنياي سوى عفو المولى عزَّ وجلَّ.

طلب مني مالك بن عُدي النسّاخ أن أدوّن له كتابًا أختصه به وحده، قال إنه سوف ينسخه بلا انتهاء، ويعلّق الأصل في واجهة دكانه.

كنت قد حلمتُ في الليلة السابقة بالنسّاخ وصديقه يزيد بن أبيه الخزّاص. كنا يوم غيث وزَلَق. ثمة ناقة، تسبقنا ونتبعها، دون أن يسنح لأحدنا اعتلاؤها. أنا في المقدمة، وخلفي الخزّاص يليه النسّاخ، وكان السبيل ضيقًا زلقًا، فزلت الناقة، وأقعت على عجزها، ولم تستطع القيام.

تابعناها دون سعي لمساعدتها. بكى الخواص وضحك النساخ، فيما وقفت أنقل عينيَّ بينهما وبين الدابة المسكينة، وقد

عجزتُ عن الكلام. لم تعد علني لثغة يتهكم عليّ وعليها الحمقى، بل البكم التامّ. فقدتُ صوتي وطاقتي على الحديث.

احتبست الكلمات في حلقي وكدتُ أختنق بها. صمت صاحباي مبهوتين. أخذا يتأملانني من دون أن يفهما ماذا ألَمَّ بي. اعتادا مني الصمت، لكن سيماء الألم البادية على وجهي شلتهما.

ثم انزاحت الغمة عني، ووجدت صوتي وكلماتي، فيما غابت الناقة. قلت لهما ووجهي صوب موقع زللها:

نبها القلوب من غفوتها، المعتزل هو العابد الزاهد وليس العادي خلف الشهوات الملاحِق لها، أو المسكون بالشكوك التابع لوساوس النفس الهاجسة بالخطايا. نحن أنضاء شوق وأبناء سبيل، نحن أنضاء شوق وأبناء سبيل، نحن أنضاء شوق وأبناء سبيل.

حين أفقتُ، كانت الجملة الختامية لا تزال تُستعاد في عقلي.

لطالما لفتني الاختلاف الجمّ بين شخصيّتي الشّاخ والخوّاص، لم أفهم قط ماذا جمعهما معًا. أقول: المصادفة على الأغلب، حين اجتمعا في مجلس الحسن، ثم انتقلا منه إلى مجلسي. طول الصحبة يختلط في أذهان البعض بالصداقة أحيانًا.

أحدهما بالغ الحيطة، لا ينطق إلّا بعد تأنٍ، ويبدو باخلًا على مستمعيه بكلماته، مفضّلًا الاحتفاظ بها في أعماقه، فيما الثاني مندفع في الحديث لا يحتاط لشيء، يتعامل كما لو أن العالم بيته الآمن.

لطالما خشيت على الخوّاص من حسن ظنه الفائض هذا. ليسا من خوّاص حلقتي، ومع هذا ها هما قد تجليا في حلمي ثانيةً. في التجلي الأول كانا يختصمان، وطلبا مني الحكم بينهما في مسألة لم تكن تستدعي الخصام ولا الشقاق.

لم يسألاني عن مبدأ المنزلة بين المنزلتين ولا الوعد والوعيد ولا أي شيء يخصنا نحن المعتزلة. كانا يحدقان إلى سماء ليلية توسطها نجمان مائلان؛ أولهما هلال وثانيهما شمس، لكنها اتخذت هيئة الهلال أيضًا.

تجادلا بشأن أيهما هلال، وأيهما شمس متخفية في هيئة هلال. بدا جدلهما صاخبًا عنيفًا، أعلمتهما بما أظنه في شأن النجمين، فلم يأبها بكلامي، مع أنهما من طلبا مني الحكم بينهما. ثم اختفى النجمان، سقطا من السماء في جُبٍّ بلا قاع، ووقفنا هلعين نتطلع إلى مكانهما الخالي في سماء سوداء مثل ليلٍ بهيم.

لم أحكِ لأيهما أي شيء عن حُلمَيَّ هذين، وإن دفعني الحلمان للاهتمام بمتابعتهما جلسة فيما يجلسان بين المتحلقين حولي. كانا يتوقفان ببابي أحيانًا، كلٌّ على حدة. النسَّاخ يطلب شيئًا: يستفتيني في فتوى أو يستوضحني في مسألة مستغلقة على فهمه، والخَوَّاص يأتيني بشيء: سلال خوص أو بساط نسجه بنفسه. إذا امتنعت عن قبول عطاياه، يطلب مني التصدق بها لأحد المحتاجين، ويصمم على عدم أخذها مجددًا.

شتان ما بين السائل والمانح، حتى لو كان السائل سائل علم.

إلّا أن شيئًا في الخَوَّاص يقلقني؛ شيئًا ليس بمستطاعي تحديد كنهه، لعله إخلاصه القاطع لما يؤمن به؛ إخلاص في وسعه منع التدقيق والحصافة؛ إخلاص كفيل بأن يقود إلى الخيانة عند أي منعطف لأنه أعمى بلا عقل ولا منطق.

قد أكون مخطئًا، لكن هذا هو انطباعي عن الخَوَّاص، مع أنّي أتعاطف معه وأستملح شخصه عن صاحبه النسَّاخ.

في سيمائه وحديثه ما يستطاب به كأنه نافجة مسك يفوح منها طيب التقوى والفلاح. إنما العبد حيث يجعل نفسه، ولطالما جعل الخوّاص نفسه في مجالس العلم والتقوى.

في نوبة بوح حدثني عن حلم يلازمه منذ الصبا والشباب، وفيه ملائكة تجمع الياسمينَ من بساتين مدينتنا. قصَّ عليَّ تأويل الإمام الحسن له، فانقبض قلبي واستعدتُ منامًا قديمًا، كنت فيه على حدود المدينة، أقلّب وجهي في السماء، ثم أوجهه نحو الشمال حينًا وصوب الجنوب حينًا. كنت تائهًا وأحاول الاهتداء بالنجوم مثل بدوي محنك، لكن الوقت كان زوالًا، ولا نجمة واحدة تزيّن السماء.

ثم إنّي خطوت كيفما اتفق حتى وصلتُ بستانًا على حدود مدينتي، في مقدمة البستان بيت بحديقة كان أديمها صلدًا ومغطى بياسمين لا نهاية له. دستُ الياسمين، وفي نيتي، ولوج البيت. بدا لي هذا الولوج مسألة حياة أو موت، كأن حياتي تتلوني بالداخل.

عند الباب، شدّتني قوة لم أتبينها إلى الخلف، ثم استحلتُ ياسمينًا، اختلط بما عداه من ياسمين ذابل ومتكوّم في مجازات الحديقة، وهبّت عاصفة هوجاء فحملت الياسمين إلى داخل البيت.

منذ ذاك الحلم أيقنت أن المنية ستوافيني وقت وباء أو هيجاء، سوف تصعد نفسي إلى خالقها مع مئات، بل آلاف النفوس. ومع كل وباء أو فتنة واقتتال، كنت أنحين ساعتي وأتلو الشهادتين متوقعًا أن أكون بين الفانين، إلّا أن المولى عزَّ وجلَّ كان يمهلني أجلًا جديدًا، أمتنّ له بسببه، مثلما أمتنّ له على كل شيء.

هكذا عشتُ دومًا حياة مودّع دون أن أبوح بحلمي هذا لأحد؛ حلم علمت تأويله ما إن استيقظت من نومي.

- ٤ -

ينظر غيري حولهم فيرون أشجارًا أو سماءً، بحرًا أو طرقات، أما أنا؛ مالك بن عُدي النسَّاخ، فأبصر رموزًا وعلامات. لا شيء كما يبدو. الظاهر خديعة. يحتاج البعض إلى النوم كي يحلم، وأنا الحالم في اليقظة لا حاجة بي إلى المنام.

أبصر عندليبًا، فأرى فيه امرأة لطيفة لبقة، وأرى في الخفاش رجلًا ناسكًا وفي العصفور رجلًا محتالًا. يقابلني هدهد، فأفكر في رجل بصير في عمله لكنه قليل الدين. تقف على شجرة النَّارَنْج المجاورة لِخُصّي حمامة، فيحيلها عقلي إلى امرأةٍ صالحةٍ أو خبر طارئ ورسولٍ وكتاب. لا تخيفني المفازة حتى لو سعيتُ فيها بلا دليل؛ فهي عندي الفوز والربح والرخاء.

أحبّ البصرة؛ فهي في شرعي المدينة بألف لام التعريف، والمدينة أمان وتحصين. ألم يقل شعيب لموسى حين دخل الأخير إلى «مدين»: «لا تخف، نجوت»؟!

في بصرتي إذن النجاة والإنقاذ.

أيحتاج من هو مثلي إلى أحلام؟! حياتي منام سوف أفيق منه بموتي. لستُ مفسرًا للأحلام، أنا أعيش بها. أتنفسها وألمسها وأتعثر فيها أينما توجهت.

وَثَّقَت الأحلام علاقتي بيزيد بن أبيه، وكانت ثغرة تسللت مجيبة من خلالها إليَّ. كان عليَّ أن أحدس بعزمها على إغوائي، حين فاجأتني بالزيارة في خُصّي، ذاك الضحى؛ راغبةً في أن أفسر لها منامًا متكررًا. لم أسأل نفسي لماذا لم تجعل زوجها رسولًا بيني وبينها. كنت مفتونًا بثغرها الباسم، وإن تظاهرتُ بغضّ البصر. قالت إنها تحلم، بين آن وآخر، بأنها بئر ماء -عند مفترق طرق- تمرُّ بها الرواحل.

فسَّرتُ لها رؤيتها بالسعة والرزق؛ فالبئر المبذولة في الطرقات أسواق ينال منها الرائح والغادي رزقًا وخيرًا. عرفتُ، بعد فوات الأوان، أني أسأتُ التأويل. تدخلتْ أهوائي وأعمتْ بصيرتي، على غير العادة.

لم تكن البئر سوقًا ولا سفرًا في حلم مجيبة، بل دلَّت على زانية مبذولة لمن مرَّ بها وأرادها!

ذات ضحى آخر، جاءتني مهمومة قالت إنها رأتني غرابًا يعشش على نافذتها، وإنها كانت هانئة راضية في الحلم، لكنها استيقظت وقلبها مقبوض، دون أن تدرك سببًا لهذا.

لم يكن ثمة مجال لإساءة التأويل تلك المرة. عرفت على الفور ما سوف يقع بيننا، ولم أستنكفه. على العكس من هذا، ازدانت في عينَي أكثر. لم أستطع منع نفسي، ولا التحكم في إثارة مفاجئة تملكتني. ارتعشتُ مهتاجًا بينما أتأمل محاسنها. اقتربتُ منها ولثمتُ ثغرها بشفتَيَّ المهتاجتين، فراوغتني وفرَّت مني فيما تطلق ضحكة مُرَقّشة بالدلال. لم تبدُ ضحكتها خليعة، بل للغرابة مازجها بعض الحياء، وهذا تحديدًا ما خلب لُبي.

لم أنم للحظة واحدة خلال الليلتين التاليتين. منعتُ نفسي بعون الله وفضله من الذهاب إليها. كنت مدركًا أن رؤيتها ستضعف آخر حصوني.

في تلك الفترة، لم أفكر في يزيد قط. كانت مُجيبة تحضرني كحورية مُنْبَتّة الصلة بأي شخص أو شيء آخر. استعضت عن الأحلام المستعصية عليّ دومًا بالمخيلة. رحتُ أتخيلها معي في خصي وفوق فرشة نومي. لم أكن قد أبصرتُ منها سوى وجهها، وبعض خصلات من شعرها فاحم السواد، فأكملتُ ما غاب عني من محياها بقوة الخيال.

ثم حدث أن أفقت مما أنا فيه من غي وضلال. كان شهر قد مرّ على تلك الحادثة بيني وبين زوجة يزيد؛ شهر تعمدتُ خلاله تجنب الاثنين، وهنّأت نفسي على قوة إرادتي. التجأتُ إلى الذّكر وقيام الليل، كنت أطرد صورتها - إن تراءت لي - بالاستغفار الدائم والابتهال إلى المولى عزَّ وجلَّ كي يبعدني عن موضع الأنفس الدنيات المؤثرة للرذائل المبتعدة عن الفضائل. ظننتُ أنّي قد صرتُ محصنًا ضد مجيبة بما يكفي، وكان من غير الممكن تجاهل يزيد أكثر من هذا، فقلتُ لنفسي: إن رؤيتها مجددًا هي الطريقة الوحيدة للتيقن من نجاحي في مقاومة غوايتها.

لم أكن قد اشتهيت قط امرأة لا تحلّ لي قبلها. كنت أغضّ البصر، وأدرّب أذنيّ على تجاهل رنات الإغراء في الأصوات اللعوب لصاحبات الخطوات المتأودة في الأسواق والساحات، غير أنني لم أكن مستعدًّا، لمّا استولت عليّ مجيبة على حين غرة. لم أفطن في البداية إلى مكمن إغرائها. لم تبدُ لي لعوبًا حين أبصرتُ وجهها

في تلك المرة الأولى التي قصدتُ فيها بيتهما، عقب زواجهما بمدة قصيرة؛ لآخذ يزيد معي في سفرة إلى بلدة قريبة. أردت رفيق طريق، ولم أكن أعرف حينذاك أن رفيقي الحقيقي سوف يكون وجه زوجته وابتسامتها الخجلى قليلًا وعينيها المغمضتين بوعود مخاتلة.

بعد شهر ممّا جرى بيني وبينها في خُصّي ومن مقاومتي لافتناني بها، قصدتُ بيتها بدعوى استشارة يزيد في أمر من أمور دنياي، فأخبرتني بأنه في الأهوار ولن يعود سوى مع حلول الليل، لكنها صممتْ على استضافتي وإكرامي حتى تفتر حرارة الجو بالخارج، فلم أمانع. حين أغلقت الباب خلفي، لمحت في عينيها لمعة لم تغبْ عني، فلم أدرِ بنفسي سوى وأنا أضمها إليّ وأرتشف من شهد رضابها، تلوّت بتمنع بين ذراعيّ، إلّا أن تأوهاتها أخبرتني بما تسره نفسها، بحركة فاتنة أزاحت غطاء رأسها فانسدل شعرها الليلي طويلًا وانفكت جدائله. أذهب هذا عقلي، فطرحتها أرضًا واعتليتها دون تفكير في العواقب. لانت لي، وضمتني إليها أكثر، فلم أحتمل وخارت قواي فوقها كثورٍ هزيل.

لم تبدُ لي خائبة الرجاء، على العكس لمعت عيناها أكثر، وأطلقت ضحكة استعصى عليّ تأويلها، فقمت عنها شاعرًا بالخزي والألم.

عدلتُ هندامي، وانتظرتُ برهة حتى هدأتُ وغادرتها، فيما ظلتْ راقدة بإغواء وتكاسل، وبقيَ ثغرها باسمًا كأنما ارتوت حتى ثمالة العشق. يحق لي الآن أني لم أفهم تلك المرأة قط.

عدتُ إليها بعد أيام عازمًا على الثأر لنفسي منها. كنتُ على علم بأن يزيد خارج البصرة، فتسللتُ إلى بيتها محاذرًا أن يراني أحد جيرانها. فتحتْ لي الباب، وسبقتني إلى الداخل. شيء ما في هدوئها استفزني. بدت مرتاحة البال غير آبهة بي.

جررتها نحوي وقبّلتُها، فسحبتني نحو تختها في الغرفة الداخلية. ساعدتني على خلع ثيابي بروية مفتتة للأعصاب، وخلعت ملابسها عنها بالتأني نفسه. كانت في عينيها نظرة تحدٍّ لم تغبْ عني.

رددتُ على هدوئها بهدوء مماثل. ارتشفنا ثمالة عشقنا بتمهل مشبوب، حين قمتُ عنها في النهاية، بدت مثل هرة غارقة في خدرها ولذتها. لا، لعلها لم تكن مثل هرة قط. شيء ما فيها يقربها من الجوارح والضواري. بريق عينيها وذكاؤهما ربما، أو رشاقتها وحيويتها.

بعد ذاك اليوم، كنت أنتهز أي فرصة للمرور بمجيبة وهي وحدها في البيت، وكنت أضمن بقاءها وحيدة لأطول وقت ممكن من خلال حشو عقل يزيد بتأويلات تتطلب منه أن يعتكف وحيدًا في خُصّي.

كل مرة كنت أؤكد لنفسي أني لن أقربها وسوف أكتفي فقط بإمتاع عينَيّ بمحاسنها، وكل مرة كان ينتهي بي الأمر إلى فراشها، أتذوق مفاتنها وأنتشي بطيبها ورحيقها فيزداد نهمي لها.

حتى جاء اليوم الذي باغتني فيه يزيد في الفراش مع زوجته، عاريًا ملتحمًا بها، ومرتعشًا بين ذراعيها. لم يكن ثمة مفاجأة لها. لم تحاول حتى تكلف الندم أو الخوف. كانت هادئة متماسكة فيما لم أتمالك نفسي وأنا أستر عريي من عينيه المصدومتين المصوَّبتين نحوي أنا لا صَوْبها هي.

توقعت أن يهجم عليها ليخنقها، أو عليَّ ليضربني حتى الموت، بيد أنه أدار لنا ظهره وغادر بخطوات ذاهلة مرتبكة. فيما بعد تيقنّا من أنه بعد أن هامَ على وجهه في الطرقات لبعض الوقت، اتجه نحو الخُصّ واعتكف فيه. اتفقت معها على أن قتله صار حتميًا؛ خوفًا من أن يفشي سرّنا ويرفع عنا سترنا ما إن يفيق من صدمته.

بحجرٍ خبطته على رأسه حتى فاضت روحه، فيما وقفتُ هي تتابعني بعينٍ وتحرس الطريق بأخرى. جررناه من الخُصّ بعد أن حفرنا حفرة قريبة، دفنّاه بها وواريناه الثرى. بعد يومين، زرعتُ شجرة ياسمين فوق الحفرة المردومة والمحتوية له.

خلال أسبوعين، غافلتني مجيبة وفرّت من البصرة لا أعلم إلى أين. بحثتُ عنها بلا طائل، ثم كففتُ عن البحث مع تعاظم ندمي وإحساسي بالذنب.

كنتُ أتوضأ في اليوم الواحد عشرات المرات، وأصلي بلا انقطاع. أتذكر حزن الحسن البصري وخشيته من النار، فأقول: هذا الحسن الذي لم يؤذِ نملة كان يقضي ليله ساهرًا قانتًا؛ خوفًا من ذنوب لم يرتكبها، وهلعًا من جحيم لا يعتبر نفسه مبرءًا منه، فماذا عني بعد أن ارتكبتُ ما ارتكبت؟!

على غير إرادتي، كان الشوق إلى مجيبة يعذبني كل ليلة مهما تحايلت عليه بالأذكار والقيام. كان ذلك عقابي.

مع مجيبة يصبح فيَّ قول القائل: «ألقاه في اليَمّ مكتوفًا وقال له / إياك إياك أن تبتلَّ بالماء».

معها، رأيت الصانعَ في المصنوع، وأحببت الخالقَ في المخلوق. أفكر أحيانًا في أنها كانت وسيلتي في التعبد ومدح صنيع الخالق، ثم أعود وأستغفر العليَّ القدير من هكذا هرطقة.

أشعر في نهاية المطاف، أنها كانت صورة خلت من المعنى، وأنا تفرست في الصورة وخانني تأويلها. وانشغلت بعارض المهمات عن أصيلها. أستعيد الآمال العريضة التي خايلتني في بداية حياتي، وأبتسم متأسيًا. أردد في سري:

«إن الليالي والأيام حاملة/ وليس يعلم غير الله ما تلده».

أواسي نفسي بأن القدر يجري بمكروه النفس، ثم أعود إلى صوابي؛ فمن غير اللائق تحميل القدر عبء آثامي. كنت مدركًا منذ البداية للحدّ الفاصل بين الصواب والخطأ، منتبهًا للمشتبهات بين الاثنين، واخترت مصيري بنفسي. سرت نحوه بعينين مفتوحتين وإرادة فاترة عن الصواب وعازمة على الخطأ.

تشرّبت الخوف وهضمته مما وصلني عن سنوات ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق. علمتني الحكايات المتداولة عنه وعن أمثاله ابتلاع كلماتي والتخفي وراء الصمت وازدواج المعنى. كنت صغيرًا، فانحفر الخوف عميقًا بداخلي، بحيث صار من الصعب اقتلاعه أو إطفاء جذوته، ومع هذا عجزتُ دومًا عن فهمه.

كثيرًا ما ذُكِر أمامي ابتهال الحسن البصري بعد مقتل الحجاج: «اللهم أنت قتلته، فاقطع سُنّته عنا». اعتدت ترديدها على خُطى إمام الدين، لكن في سريرتي كنت موقنًا من أن تلك السُّنّة باقية ما بقيَ البشر على وجه البسيطة.

التجأتُ إلى التقية، ليس مع أهل السلطة وحدهم اتقاءً لبطشهم، إنما مع كل من هو سواي. حتى «مجيبة» خبّأتُ عنها مكمن نفسي، ولم أُتح لها إلّا معرفة أقل القليل مما يختلج في أعماقي ويلتهمني من الداخل.

أطلعتها فقط على عواطفي الملتهبة تجاهها واشتهائي الدائم لها. كيف لا وهي من يصح فيها قول امرئ القيس حين سئل: «ما أطيب عيش الدنيا؟»: «بيضاء رعبوبة، بالطيب مشبوبة، بالشحم مكروبة»؟

يطيب لي استعادة أيامي الخوالي، زمن الأمال العريضة وحسن الظنّ بنفسي وبالعالم. أجاهد -عبثًا- لمحو كل ما يخصّ يزيد ومجيبة من ذاكرتي. لكنهما حاضران دومًا معي، كلّ لسببٍ مغايرٍ عن الآخر. أسعى لاستحضار صورة الصبي الذي كنت إياه، فتراوغني وتنفلت من بين أصابعي. صبي اعتاد أن يختلف إلى المقابر لتعلم الزهد والحكمة، وانتهى به الأمر كهلًا أغدر من ذئب.

لعلّة تخفى عليّ أرادت مجيبة زوجها مقتولًا لا مهجورًا. انتبهتُ مؤخرًا إلى أن تلك كانت غايتها منذ اللحظة الأولى. سايرتني في البدء حين حاولتُ إقناعها بأن تتطلق منه وتتزوجني بعد انقضاء أشهر عدتها. بدا كل شيء على ما يرام، وخفّت تأنيب ضميري لي وقتها.

لم أكن قادرًا على النظر، ببال مرتاح، في عيني يزيد المطمئنتين لي الواثقتين بي، لكنني على الأقلّ كنت أهدأ خاطرًا مما أنا عليه الآن. احتمالية أن يضبطني في الفراش مع زوجته لم تعنّ لي قط؛ لأنني كنت أكثر منها علمًا بعاداته اليومية ومسار تحركاته على مدار اليوم. حين ينتهي من عمله في سوق الخواصين، كان يجلس لبرهة مع صديقنا أبي بكر النظّام في سوق الخرازين، قبل الذهاب إلى الأهوار أو للتعبد في خُصّي الخالي مني معظم اليوم.

في أحيان كثيرة يكون بصحبتي، ولما كنت أغادره إلى شأن من شئوني الخاصة، كنت أحرص على معرفة أين سيكون كي ألتحق به ما إن أنتهي من شأني. ازداد حرصي هذا طبعًا بعد أن وضعت نفسي في مواقع الزلل والندامة مع مجيبة.

يوم باغتنا معًا، كنت واثقًا من أنه سيبقى في دكانه بسوق الخواصين لوقت متأخر. كان متأخرًا في تسليم طلبية كبيرة من

الخُصر والسلال، واستمهل صاحبها يومين إضافيين، وعلى مدى هذين اليومين وصل ليله بنهاره مع مساعديه الاثنين كي ينتهوا من النسج في الموعد الجديد.

مررتُ به قبل ذهابي إليها، وتأكدت أنه منهمك في العمل، حدَّ أنه لم يكد يرفع رأسه لرؤيتي وهو يردّ تحيتي. قلت إنني لن أعطله وسوف أعود لزيارته قرب المساء خلال استراحته القصيرة.

لم أكن أعلم أنه سوف يضبطني بالجرم المشهود بعد قليل، مثلما لم أكن أعلم أن هذه ستكون آخر مرة أقرب فيها مجيبة غارقًا في الشهوة والعشق لا محمومًا بالرغبة في الثأر والإذلال، لو كنت علمت بهذا، لما قمت عنها حتى لو وقفت البصرة كلها تتفرج علينا.

بعدما تخلصنا من يزيد كنت آخذها كمن ينتقم من نفسه ومنها ومن الحياة والناس أجمعين، بعنف وغلاظة وسرعة اعتدت أن أبكي بعدها على صدرها، فتزيحني عنها، وتقوم عن الفراش صامتة.

لم تعترض مرة، لم تكن تردّ حين أعينها وأتهمها بجرّي إلى صحاري الخطيئة، أو أحملها مسئولية قتل يزيد. مرة واحدة لمحت في عينيها نظرة هزء سرعان ما قمعتها، وعادت عيناها فارغتين خاليتين من المعنى والكلام.

إن كنت لم أفهمها قط قبلها، فإنها استغلقت تمامًا عليّ واستحالت طلسمًا في الأيام الأخيرة قبل رحيلها المباغت كبغتات الدهر وتقلباته. بحثت عنها كالمهووس. قلبت كل حجر في البصرة وما جاورها بحثًا عنها. سألت الأدلاء وعابري السبيل على الطرق بين البصرة والحواضر القريبة، فلم يرشدني أحد إلى أثر أقتفيه.

واحد فقط، أخذ مني صُرة دنانير، وأخبرني بأن من أبحث عنها ماتت، لا ريب، عطشًا وجوعًا في صحراء السماوة بعد أن غدر بها الدليل، وتركها وحدها هناك في طريقها إلى الكوفة.

كدت أخنق الرجل لإحساسي بأنه ذاك الدليل الذي خان ثقة مجيبة، أزاح يديَّ عن عنقه، ودفعني بعيدًا فوقعت على الأرض وارتطم رأسي بحجر.

كنت موزعًا بين ألم الارتطام ووجع حزني على مجيبة، إن كانت هي فعلًا المسافرة المتنكرة في ثوب رجل، التي تركها الدليل لمصيرها بعد أن نال أجرته مسبقًا.

ظللت في رقدتي لبعض الوقت، عيناي غائمتان ورؤيتي مشوشة كأن العالم قد أظلم أمامي وتركني بلا حول ولا قوة.

كانت مجيبة قد هجرت منزلهما المؤجر بعد مقتل يزيد بأسبوعين، ودون مجهود مني ترددت شائعة أنهما غادرا البصرة إلى الكوفة بعد أن تُوفِّيَ قريب ليزيد يسكن هناك، وترك له منزلًا وبستان نخيل هناك.

حين كنت أُسأل عن حقيقة الأمر، لم أكن أرد بجواب قاطع، أكتفي فقط بالإيحاء أن حال يزيد الآن أفضل بكثير مما كانت عليه في الماضي.

فاق ندمي بسبب تحاملي على مجيبة ندمي على غدري بيزيد. بدا الأخير كأنما ينتمي إلى ماضٍ غابر، فيما مجيبة هي حاضري ومستقبلي. لكن مع تعاقب الأيامّ، ويأسي من الوصول إليها، عدتُ أكتوي بنار الندم على خطيئتي الأصلية، حائرًا بين الذِّكر والاستغفار وقيام الليل، وبين ولعي الكامن بملذات اكتشفتها وأيقظت جذوتها التي كانت غافية في أعماقي.

تزوجت امرأة ذات جمال ويسار وعشت معها في بيتها محاولًا تناسي خطايا ماضيّ، رحلتُ فورثتُ ثروتها وتزوجتُ بثانية ثم ثالثة وكان لي أكثر من جارية ملك يميني. اشتريتُ بيت يزيد من مالكه الأصلي، وحرصتُ على بقائه بحالة جيدة على الدوام.

لم أعد أشبه ذاك الزاهد الذي كنت إياه في شيء، وإن احتفظت بخُصّي القديم، وكثيرًا ما كنت ألتجئ إليه للتعبد والاستغفار. من نافذته، كان بإمكاني رؤية شجيرة الياسمين التي زرعتها فوق قبر يزيد. لتأمين عزلتي هناك، ابتعت البستان المجاور بكامله.

كان مكوثي في ذاك المكان أشبه بضريبة عليَّ دفعها؛ كي تظلَّ جريمتي حيّة في ذاكرتي. كنت أتعذب بوجودي على مقربة من قبر رفيق صباي وشبابي، وكان هذا العذاب قميص شوك عليَّ التآلف معه والرضا به.

-٥-

في المسافة من البصرة إلى الكوفة كدتُ أفقد حياتي. متنكرة في زي رجل ملثم غادرتُ بيتي فجرًا، ومعي صُرة تحوي بعض الطعام وصرة أصغر بها دنانير ذهبية وبضعة جواهر ياقوت ومرجان ولازورد وزمرد.

لا تزال الكوفة بعيدة عني، تركني الدليل في منتصف الطريق، أخطأتُ حين دفعتُ له أجرته مسبقًا. صحوتُ فجرًا فلم أجده في الجوار، ولم أجد ناقته الهزيلة كذلك. ارتعبت من أن يكون قد سرق صُرتي بما فيها، لكنّي تذكرت أنني أخفيها تحتي في أثناء غفوتي، تؤلم جنبي، فأحتمل الألم من أجل الرخاء المُشتهى. لا متعة دون ثمن، وكي تنعم بشهد العسل، علينا احتمال لدغ النحل.

لا ريب أن مالك بن عُدي النساخ قد أدرك هذا جيدًا، بعد أن دفع ثمن متعته بطريقة لم تطرأ له على بال. يحيرني كيف لرجال بالغي الذكاء أن يفقدوا عقولهم بالكامل أمام شهوتهم. في البدء، نظرتُ إليه بإكبار. كيف لا وهو من تلقّى العلم عن الحسن البصري قبل أن يلتحق بركب واصل بن عطاء الغَزّال وعمرو بن عبيد الباب؟! كيف لا وهو الذي تُشدّ إليه الرحال من أصقاع بعيدة كي يفسر لأصحابها الرؤى والمنامات والأحلام؟!

حين قصدته أول مرة في خُصّه، كنت راغبة حقًا في أن يفسِّر لي منامي، غير أنني أيضًا كنت أسيرة شهوة مستبدة تدفعه كي يلاحظني، وينتبه لي كامرأة. مثَّل هذا حلمًا بعيد المنال، لكن أمنياتي صورت لي إمكانية حدوثه.

في المرة الثانية تضاعفت آمالي، خاصة حين لمحتُ نظرة الشهوة الأولى في عينيه متبوعة بارتعاش شفتيه، واقترابه مني لخطف قبلة زلزلت كياني لأنها أشبه بفاكهة محرَّمة عليَّ وعليه.

انفلتُّ منه وغادرته مسرعة، فيما خطواتي تتثاقل وتحثني على العودة للوراء لإتمام ما بدأ. ضحكتُ. كانت ضحكتي خليطًا من الزهو الممزوج بخيبة الأمل. ظننت أن رحلة صبدي له سوف تطول، وأنه سوف يمتنع عليَّ ويقاوم غوايتي بدرجة أكبر.

لم يكن حلم الغراب المعشش على نافذتي زائري الوحيد في الليلة السابقة على ذاك اليوم، رافقني مالك هو الآخر. كان ضيفًا على فراشي، يعتليني صاخبًا عنيفًا تارة، ومرتعشًا بين ذراعيَّ متذللًا تحت قدميَّ أخرى.

في الحلم كان أملح مما هو في الواقع، وأكثر حرارة وظُرفًا، وكنت جاريته مرة وسيدته مرات. صحوت يومها مرتوية بماء العشق كما لم يحدث لي قبلها ولا بعدها.

حين زرته، في خصه، حكيت له فقط عن الغراب المعشِّش على نافذتي. لم أنبس بكلمة تخص ما ارتشفناه من لذة معًا، لكنني تمنيت أن يتحقق حلمي بمجرد دخولي خُصّه. اشتهيت أن يلاطفني ويرويني في يقظتي مثلما سبق ورواني في النوم. تعشمتُ أن يكون لي مثل ديمة هطلاء سخية العطاء.

ما أبعد الشُّقَّة بين المنام والصحو!

لم أفهم قط ما الذي جمع بينه وبين شخص خامل الهمة والذكر مثل يزيد بن أبيه. علاقتهما مثّلت لي لغزًا وأحجية. ثم لمحت الاشتهاء في عينيه، فتملكني مزيج من الفرح والاحتقار، وعرفت أن الفرصة واتتني لتنفيذ مخططي.

لم يكن الطمع دافعي، ولا الجواهر والدنانير الذهبية هدفي، أقصد أنها كانت كذلك طبعًا، لكنها لم تكن هدفي الوحيد. أردت تلقين يزيد درسًا أخيرًا. رغبت في الانتقام منه على جَرِّه إياي لحياة شظف وشقاء في وقت يكتنز فيه كنزًا مخفيًا عن العيون. هل ظنَّ أني، وأنا أعيش معه في بيتنا الضيّق المُكترى، لن أكتشف ما يخبئه؟!

كان بإمكاني الهرب بالصُّرة بمجرد اكتشافي لها، وكنت سأفعل هذا طال الوقت أم قصر، بيد أن دخول مالك النسّاخ حياتي بدّل خططي. في وقتٍ ما، رغبتُ صدقًا في العيش معه بعد التخلص من يزيد والثأر منه، لكنني فطنتُ إلى أنني سأكون بلهاء لو استسلمت، شأني شأن الرجال، لعواطفي وشهواتي. دهائي يفوق يزيد والنسّاخ معًا، ومشتهاي الوحيد قابع في صُرة لا تفارقني. أحمد الله على أنني لم أكاشف النسّاخ بأي شيء يخصّ كنز يزيد. ما إن دفنّاه معًا، حتى بدأ شريكي في الجرم في الشكوى والعويل مثل غلام مزعج ومدلل. راح يهينني ويتهمني بأشنع الاتهامات، ويرثي حظه الذي أوقعه في حبائلي. فاجأني شعوره بالذنب وحديثه عن يزيد باعتباره أقرب أصدقائه. أين كانت صداقتهما وقت كان ينهل المسرات معي؟! أتبخرت وهو يسابقني على كسر جمجمة صديقه بالحجر قبل أن يفضح سترنا للناس؟! لماذا لم يفق من غيبوبته ويرفع

غمامته إلّا بعد الاطمئنان إلى أن يزيد بن أبيه راقد، لا حول له ولا قوة، تحت الثرى؟!

تتبعته بعدها بيومين وقت الزوال، ورأيته ينبش قبر يزيد ويتركه فاغرًا فاه للسماء لبرهة، قبل أن يردمه من جديد ويغرس ياسمينة فوقه، ثم يتهاوى على ركبتيه بجوارها معفرًا وجهه بالتراب، ولاطمًا وجهه كما النساء. في تلك اللحظة، تلاشى كل اشتهائي له كأنه لم يكن، وخفتُ من أن يؤدي خبله هذا إلى افتضاح أمرنا.

إلّا أن ما أدهشني بحق أنه طرق عليّ بابي مع غروب الشمس في اليوم نفسه، وما إن أدخلته حتى انقض عليّ تقبيلًا إلى النهش هو أقرب، وجرّني إلى التخت جرًا. لم يمهلني فرصة الاعتراض أو حتى الكلام. أخذني بعنف وغضب مكتوم كأنما يصارع عدوًا، ثم بكى على صدري محتضنًا إياي، وحين جفت عيناه، ارتدى ملابسه وغادر في الحال.

تيقنت في سريرتي من أن هذا سوف يتكرر كثيرًا، وهو ما حدث. كان يأتيني كل يوم تقريبًا، وأكثر من مرة في اليوم الواحد أحيانًا، متنكرًا في ثياب امرأة مبرقعة. في اليوم السابق لفراري لم يغادر بيتي قط. دون كلمة واحدة كان يثبتني في الفراش ويروي شهوته، ثم يقوم عني دون أن ينظر إليّ. يتجوّل عاريًا في البيت مغلق النوافذ، ثم يعود إليّ من جديد. أخذ يسألني عن عادات يزيد وأماكنه المفضلة في البيت. خُيّلَ إليّ أنه راح يقلده: يجلس في البقعة التي أشرت له عليها باعتبارها المكان الذي يرتاح فيه، ويضيّق عينيه مثله حين كان يرغب في التدقيق في شيء ما.

أخافني هذا، شعرت بأنني أمام مزيج من الاثنين. القاتل والقتيل معًا في تجسُّد واحد. قابيل وهابيل ولا مكان لي أنا مجبية بينهما.

أخبرني وهو يغادر يومها، متنكرًا في ثوب المرأة المبرقعة، بأننا سوف نرحل خلال أيام من البصرة إلى دمشق؛ حيث سنتزوج ما إن تمرّ خمسة أشهر على مقتل يزيد، فعجّلتُ موعد فراري.

حتى تلك اللحظة، لم يكن غياب يزيد قد لوحِظ بعدُ.

لا أعرف ماذا حدث للنسّاخ بعد خروجي من البصرة، ولا حتى إن كان مازال يعيش هناك أم غادرها هو الآخر! في درب هروبي لم أكن منشغلة سوى بنجاتي وبصُرّة اعتبرتها امتدادًا لجسدي، حدبة تثقل عليّ تمامًا مثلما كان اسمي عبئًا عليّ في الزقاق الفقير حيث نشأت.

«مُجيبة» على اسم مجنونة الحي؛ المرأة التي أشاعوا عنها أن مجرد النظر إليها يورث الجنون، فما البال وقد حملتُ اسمها؟! كنت أسمع الصغار وهم يركضون خلفها ساخرين منها، فأشعر بأنهم يهينونني أنا لا هي.

أراها تبيع الدجاج في السوق بضحكة بلهاء، أو تتشاجر بصوت صارخ خشن مع أحد الرجال، فأشفق عليها وأحسدها في آنٍ. نعم، كنت أحسدها على خلو بالها، وعدم انتباهها أو ربما عدم اكتراثها بالكيفية التي يراها بها من حولها.

يناديني أحدهم: «مُجيبة»، فأشعر بأنّي استحلت مجذوبة هائمة على وجهها غافلة عن العالم بأسره، ولا يهمها سوى دجاجات تربيها بنفسها وتبيعها في الأسواق دون أن تهنأ هي بطعمها.

سمعت من يقول إن دجاج مجيبة مجنون بدوره ولا يكفّ عن الوقوقة وإثارة الجلبة والركض في جنبات بيت من يشتريه. أضحكتني الفرية، مع أنها وجدت آذانًا صاغية لها؛ بحيث امتنع كثيرون عن ابتياع بضاعة المرأة المسكينة، باستثناء أصحاب

القلوب الرحيمة ممن كانوا يقبلون على ما تعرضه حتى وهم في غير حاجة له لمجرد مدها بنقود تقيم أودها.

في صغري، شهدت على واصل بن عطاء الغزال يشتري منها، ويتصدق بما اشتراه للأرامل والعوزات. لم يكن يصدق أن الدجاج ينقل عدوى الخبل، لكنه كان ناسكًا زاهدًا يكتفي في مأكله ومشربه بما يقيم الأود بالكاد، ويفضل أن يساعد الفقراء والمحتاجين. كم تابعت جلسته بجوار الغزالين في السوق كي يتعرف على أحوال الناس وهمومهم، ويعرف من منهم يحتاج معونة دون أن يسألهم أسئلة تحرجهم، فقط يكتفي بالجلوس والتدبر.

لم أبلغ الكوفة قط. بعد تيه، استمر لمدة لم أقدر على حسابها، في صحراء السماوة. أنقذني أعرابي وحملني على ناقته إلى الواحة حيث يعيش. أقمتُ في خيمة عجوز قعيدة تحتاج إلى من يرعاها. قيل لي إن أبناءها الخمسة قُتلوا إبان عهد الحجاج بن يوسف الثقفي. كنت أقول لنفسي: إن كل شيء سيكون على ما يرام ما دامت صُرَّتي الحبيبة بحوزتي، وتحملت معي صعاب الطريق ومشاقه، لم تنفصل عني، ولم أكد أتركها قط.

مرت الليالي ثقيلة عليَّ. كثيرًا ما كنت أشتاق إلى البصرة ببساتينها وأسواقها وباعة السمك والخبز على أطراف مربدها. كنت حتى أشتاق إلى حارتي القديمة بمجاذيبها وأشرارها. ليلة بعد ليلة فترت همتي وغلبتني الهموم. ماتت العجوز بلا وريث؛ فعشت وحدي في خبائها. لم أعد جميلة بضَّة كما كنت. جففت قسوة البادية جسدي وأحرقت شمس التيه وجهي، فلم يستعد نضارته السابقة قط.

فككت صرتي مع الوقت، فتحتها وتأملت الجواهر والدنانير، ثم صررتها في زنار زنرت به خصري تحت ثيابي. هكذا فقط، كانت الطمأنينة تزورني. حين تغمرني الكآبة أتحسس خصري عبر الثياب، فأكاد ألمس كنزي الثمين. أواسي نفسي بأنني محظوظة، رغم كل شيء، فعلى الأقل لم يُكتشف جرمي، ويومًا ما سوف أتمكن من الانتقال إلى الكوفة؛ حيث سأشتري بيتًا تحوطه البساتين من كل جانب؛ بيتًا سوف أحرص على ألا يُزرَع بحديقته ياسمين أو يُبنى فيها خُصّ من قصب.

وحتى يحدث هذا سوف أظلّ أعيش في هذا الخباء على حسنات المحسنين أو على نقود قليلة أكسبها من معاونة هذه المرأة أو تلك في العجن أو الخبيز أو الرعي وحلب الماعز، وما إن تخفت شدة الشمس حتى أخرج للسير على الدروب الموصلة للواحة؛ فالسير على الطرق يريحني، ويشعرني بأني لم أستقر بعدُ، وما زلتُ سائرة على درب الوصول إلى وجهتي المشتهاة.

في طفولتي، اعتدت مراقبة نظّامي الخرز في سوق البصرة، فعشقت الخرازة والخرازين. فتنتني الألوان ودقة النظم، ومالت نفسي إلى كل جميل مشغول بعناية وحدب. احتفظت في خزانتي بقلائد وأقراط وأساور من الخرز الملون، جمعتها منذ طفولتي. كنت أجمع الإجاص والسفرجل والرمان من الأشجار القليلة في باحة بيتنا وأبيعها في السوق. وبدلًا من الحلوى التي سمحت لي أمي بشرائها، كل مرة، بجزء من ثمن ما أبيعه، كنت أذهب إلى الخرازين لأشتري شيئًا من معروضاتهم.

حين تزوجت، كنت أجنّب نسبة من مصروف البيت كي أشتري بها ما يروقني أيضًا من نظّامي الخرز. في الليالي التي كنت أقضيها

وحدي لغياب زوجي عني لشأن من شئونه، كنت أتفرج على مجموعتي هذه. كان وجودها يعزيني ويقلل من وحدتي وشوقي إلى ما لا أعرف. استمرَّ هذا حتى اكتشفت ما يخبئه يزيد مني، في شقٍّ من شقوق الحائط، مخفيًا خلف صندوق الملابس. اعتدت شغل نفسي عن الملل والوحدة بتنظيف البيت وتغيير نظامه، وفيما ازيح الصندوق كي أكنس ما أسفله وما خلفه من تراب ووسخ، رأيت الشقَّ بما فيه. بدا مثل عين شامتة تستهزئ بي.

تأملت الجواهر والدنانير الذهبية مبهورة، ثم صررتها من جديد، وأرجعت كل شيء كما كان. بعدها لم أعد راغبة في الاستئناس بمجموعتي من مشغولات الخرز. من يستضيء بسراج حين تتوسط الشمس صفحة السماء؟!

انتظرت أن يفاتحني يزيد في أمر كنزه هذا، أن يشرح لي سره، أو يبشرني بأننا سوف نترك حياة الفاقة والعوز عمَّا قريب، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. واصل اعتكافه في خُصِّ القصب معظم الليالي، تاركًا إياي أُنضِج نقمتي عليه وكرهي له على نار هادئة: نار حرماني ووحدتي.

وفي الليالي التي كان يقضيها في البيت، كنت أسمع نحيبه بجواري حين يظنني نائمة. ازداد نفوري منه كل مرة كنت أسمعه فيها يبكي كالنساء.

ربما لو كان يزيد نظَّامًا للخرز لتغير قدرنا معًا. ربما لأحببته ورضيت به، حتى لو اكتشفت أنه يخفي عني سرًّا بحجم كنز وألقه. أتذكَّر أيامنا الأولى معًا. كان يتحدث معي بلا انقطاع، لا يكاد يغادرني إلَّا للضرورة. اعتاد أن يحكي لي عن الحسن البصري،

وعن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الباب وغيرهم من رجال العلم. لم أكن أفهم الكثير مما يقول، لكنني أتذكّر انبهاري وفخري بأن زوجي يُجالس هؤلاء.

كان أبي خوّاصًا مثل يزيد، لكنه لم يكن يهتمّ بشيء خارج حدود دكانه. كان يكتفي على نسج الحصران والسلال طوال اليوم، ويعود مع حلول المساء متعبًا مكدودًا.

أما يزيد، فكان يوزّع وقته بين الدكان في سوق الخواصين، وبين جلسات العلم في مسجد البصرة وملتقياته مع أصدقائه في الأهوار وفي مربد البصرة حيث سوق الوراقين والنسّاخين.

ملتقيات كان قد هجرها في السنة الأولى لزواجنا، قبل أن يعود للانغماس فيها أو للتعبُّد في خُصّ القصب الخاص بمالك النسّاخ لاحقًا. في تلك السنة الأولى، علمني القراءة والكتابة. كان حليمًا معي، ولم يكن يغضب حين يلاحظ عدم حماسي للتعلم.

مع الوقت، أزيحت غمامة الجهل عن عينيّ، وبدأ غموض المسطور ينجلي عن ناظري. كنت أسلي وقتي بقراءة مخطوطات يخزنها يزيد بحرص واهتمام، كان يحلو له – بين آنٍ وآخر – تدوين بعض خواطره وما جرى له ومعه. كان أسلوبه متقعرًا ملتبسًا عليّ، ومع هذا كنت أحرص على الاطلاع على تدويناته دون إخباره بأنني أفعل.

تمامًا، مثلما لم أطلع أحدًا في البادية على معرفتي بالقراءة والكتابة. معلومة لن تهمّ أحدًا في النهاية، ثم إنه من المفيد أن يحتفظ كل امرئ منا بأسرار تخصه وحده. أتذكّر الآن، أن مالك النسّاخ نفسه لم يعرف أنني أجيد القراءة والكتابة.

لم تسنح فرصة لإخباره بهذا، كنا مشغولين معًا بأمور أخرى.

أيام تنفرط كحبّات العِقد

- ١ -

في طفولتها، سمعت ليلى حكايات لا نهائية عن فيضان النيل، لدرجة أن جزءًا كبيرًا من ذكرياتها الأولى مغمور بمياه من الصعب نزحها. اعتادت تأمل النهر الهادئ الأليف مندهشة من البون الشاسع بينه في الحقيقة وبين صورته الشرسة في حواديت أبويها وجديْها. في طريقها إلى المدرسة الواقعة في القرية المجاورة، بلوّرت فكرة مفادها أن الأشياء في الواقع تختلف عنها حين تسكن الحكايات.

أقنعت نفسها بأن النيل لم يتغير، وأنه لم يُغرق يومًا قرى بأكملها ولم يقض على محاصيل أو يُهلك بشرًا. كان يفعل هذا في الحكايات فقط؛ من أجل أن تزداد تشويقًا وتحبس أنفاس المستمعين الصغار.

تصحو من نومها، تجهِّز نفسها للذهاب إلى المدرسة، فيما تنثال أغنية «تملّي في قلبي» لمحمد فوزي من الراديو. كانت هذه الأغنية تُذَاع كل صباح تقريبًا في الموعد نفسه. مع الوقت أصبحت جزءًا من ذاكرتها. ما إن تصلها مقدمتها الموسيقية - في أي وقت أو مكان- حتى تنهال عليها الذكريات والمشاهد تباعًا. تستعيد: تلكؤها حتى تنتهي الأغنية، برودة الصباح، الضباب الخفيف في الخارج، وصوت أمها يحثها على الخروج.

تخرج من بيتهم المبني بالحجر الأبيض، واللحن يتردد في رأسها لا يزال. تكون البيوت المجاورة شبه مخفية عن عينيها

بالتأثير السحري لـ«الشبورة»، تصل إلى نقطة الخروج من القرية؛ حيث امتداد الحقول على يمينها والمقابر على يسارها، فيُخيَّل إليها أن الشبورة قد فقدت سحرها؛ إذ تبدو القبور واضحة جليّة، فيما يتجمع السديم في تكتلات حليبية في الممرات بينها.

تقول لنفسها: الموت كالفضيحة يستحيل إخفاؤه.

تواصل سيرها مغالبةً انقباضًا يستولي عليها في المكان نفسه كل يوم.

لا تعرف مَن صاحب فكرة أن تُلاصِق القبورُ البيوتَ على هذا النحو! تشفق على البيت الواقع في مدخل القرية، على بعد بضع خطوات قليلة من المدافن، ثم تتذكر أنه نفسه يشبه الضريح، وساكنته لا تكاد تغادره إلّا لقراءة الفاتحة، على روح زوجها المتوفَّى، أمام تُربته المحاطة بالصبار والريحان.

يباغتها خاطر أن المرأة المتجهمة على الدوام، في غير حاجة إلى الخروج لهذا الغرض، يكفيها أن تفتح نافذتها وتمدَّ يدها منها كي تلمس الجدار الخلفي لقبر زوجها.

ترغب في الضحك، إلا أنها تقمع رغبتها هذه، إذ تكاد تسمع صوت شيخ الجامع وهو يردد:

«من لا يتعظ بالموت، فلا واعظ له».

تشعرها الجملة بأنها غارقة في خطيئة لا غفران لها؛ لأنها تستدعي الهزلَ في مكانٍ يجب أن يقاربه المتقون بجلال وجدية.

لكن الهزل في حالتها مجرد زائر طارئ، فما يسكنها - كل مرة تمرُّ فيها بهذه البقعة- خوف ثقيل وخادش، أشبه بحجر حادّ الحواف يجرح صدرها من الداخل؛ فتنسى كل عاطفة أخرى.

تخلّف المقابر وراءها، وتأخذ الطريق الصاعد الرابط بين قريتها والجسر الترابي الموصل إلى القرية التي تقع فيها مدرستها.

لطالما أشعرها انخفاض قريتها عن المناطق المحيطة بها بأنهم يعيشون في حفرة في باطن الأرض، أو أن القرية ببيوتها وحقولها ومقابرها من طرح النيل. كانت جزءًا منه يومًا، ثم انحسر عنها فبانت للشمس، ومع الوقت سكنها أناس فكروا في بناء مدافنهم قبل الانشغال بتشييد بيوت لهم.

تتوقف وتنظر إلى الخلف، فترى قريتها غارقة في الضباب، ويلوح لها النيل نائيًا بأشجاره وبيوته وطيوره، متخفيًا في غمامة أثقل تحجبه عن عينيها.

تعاود سيرها، محاولة تخيل عالم جديد، قد يتكشف لها ما إن ينقشع هذا الحجاب الحليبي. تهيئ نفسها لمواجهة أكبر مثيرات الخوف عندها: تلك الانحناءة الواقعة في منتصف مشوارها تقريبًا، البقعة حيث يلتوي الجسر الترابي على نفسه كثعبان، قبل أن يواصل مساره. في قلب هذا الاعوجاج تقف شجرة توت ضخمة، أضخم حتى من تلك الرابضة في حوش بيتهم.

تتمنى ليلى كل مرة أن تتمكن من اختراع طريق لا يمرّ بتلك «القَوَّجاية» كما يسميها أهل قريتها، لا تخشاها هي بقدر ما يقشعر بدنها من الحواديت المتداولة عنها، عن شجرة التوت تحديدًا وشبح يقف تحتها رافعًا يده لتلامس فمنها، قاطعًا الطريق على أي راغبٍ في المرور.

لم يتجلَّ الشبح لها قط، فقط تسمع به في حكايات الآخرين، ممن يبالغون في وصف طوله وصوت نشيجه المشروخ واختلاط

حدود جسده الرمادي بالضباب. لا يعرف أي منهم ما الذي يبكيه! كل واحد يبتكر تفسيرًا يخصّه. وهي بينهم حائرة، لا تدري إن كان عليها أن تؤمن بوجود هذا المخلوق المخيف، أم تتعامل معه كخرافة! تخشى إن أنكرته، أن يستفزه هذا، فيحرص على إظهار نفسه لها بأكثر الطرق إرعابًا، وإن آمنت به، أن يصير حقيقة تسكن عقلها إلى الأبد.

تحث خطاها، وتقرأ آية الكرسي والمعوذتين، همسًا في البدء، قبل أن يعلو صوتها المرتعش. لا تطمئنها هذه الارتعاشة، فتعود للهمس، وهي تكاد تركض.

في سنواتها الأولى بالمدرسة، كانت تذهب إليها بصحبة أخيها الأكبر، لكنه سرعان ما انتقل إلى المرحلة الثانوية في مدرسة تقع في قرية أخرى أبعد، وظلت هي تقاوم مخاوفها من هذا الطريق وأشباحه. في طريق عودتها لا يزورها أي خوف. تشعر بأنها في عالم آخر لا يشبه عالم الصباح الضبابي في شيء. تكون الشمس متألقة في صدر السماء، والألوان مشعة، وكل شيء واضحًا. وفي ظل هذا الانكشاف تختبئ الأشباح وتتحلل إلى ذرات لا تكاد ترد على البال.

في منتصف الصف الثالث الإعدادي قررت أمها أنها نالت كفايتها من التعليم. لم تتراجع الأم أمام توسلاتها أو إلحاح مدير المدرسة ومدرسيها ممن توافدوا على بيتهم لإقناع والديْ ليلى أن ابنتهما طالبة نابهة، وأن مستقبلًا واعدًا ينتظرها إن واصلت دراستها.

اندهشت هي من إيمان مدرسيها بها، على الرغم من أن أيًا منهم لم يقلْ لها هذا قبل قرار أمها. كانت تعرف طبعًا رأيهم في تفوقها

وتشجيعهم لها، لكن المدائح المتلاحقة لذكائها وألمعيتها بدت مفاجئة، خاصة حين سمعتها من المدير، الذي لم تكن تدرك أصلًا أنه منتبه إلى وجودها في مدرسته.

كان رأس أمها صلدًا كالأحجار التي بُنيَ بها بيتهم. لم يُثنها أي شيء عن قرارها، وحتى عندما أظهر زوجها بعض المرونة تحت ضغط وإلحاح ابنه الأكبر الحريص على أن تستكمل شقيقته الصغرى تعليمها، ظلت الأم على موقفها. تارة تقول إنها تعبت وتريد من يحمل عنها عبء البيت، وأخرى تردد أن ابنتها بلغت ولا يصح أن تسير هكذا وحدها على الطرقات المهجورة.

أما الابنة نفسها، فبعد البكاء الأولي، ومع اليأس من النجاح في تغيير القرار، راحت تتفكر في حسناته، وأولها عدم الاضطرار للمرور يوميًا بـ«العَوَجَاية» المخيفة.

في تلك الأيام، لم تحدس بأن هذه البقعة لن تتركها لحالها أبدًا؛ إذ ستنتقل معها إلى كل مكان آخر، بما في ذلك إلى المنيا؛ تلك المدينة الجنوبية الهادئة حيث أقامت بعد زواجها.

سوف تسكن «العَوَجَاية» أحلامها أيضًا. فحتى بعد أن انفرطت أيامها كحبّات عِقد كهرمان، ما زالت ترى نفسها – في مناماتها – تخطو نحوها، لكنها لا تتجاوزها أبدًا لمواصلة سيرها فوق الجسر الترابي، بل تدور حول الشجرة، وتنزل المنحدر الموصل إلى الطريق المنخفض، الذي يكوِّن أحد أضلاع المثلث المزروع بنباتات لا يمكنها تمييز نوعها. الطريق محاط من الجانب الآخر بقناة مائية موازية له، تنمو على جانبيها أشجار كافور وجازورينا. ثمة دومًا ضباب خفيف وصمت تام. وهي تقصد جهة لا تدرك كنهها تمامًا، فيما يخفق قلبها بقوة بين أضلعها.

لا يزور أحلامها أبدًا بيت أهلها ولا شوارع قريتها، ولا حتى المنيا أو شقتهم فيها، لا أمكنة في جغرافيا نومها سوى تلك البقعة المترائية لها كما لو أنها تقبع في الفراغ. لا شيء قبلها ولا حياة بعدها.

لم يكذ يمرّ أسبوع على تركها المدرسة حتى شهدت القرية أمطارًا لم يسبق أن رأى أكبر معمريها مثلها من قبل. انهمر المطر لخمسة أيام متتالية. في البداية صحبه رعد وبرق ورياح حطمت بعض الأشجار وأطاحت بالأسقف غير المثبتة. ثم توقف كل شيء، وظلت الأمطار وحدها؛ زخات متلاحقة تكاد تكون صامتة، لولا وقع ارتطامها بسطح حادٍّ أو بركة مياه متكونة في هذا المكان المنخفض أو ذاك.

لزم الجميع بيوتهم، بعضهم كان سعيدًا لأن المطر وفّر عليه جهد ري أرضه المزروعة، وبعضهم كان متوجسًا من تأثير سيل المياه هذا على بيته غير المجهز كفاية لمواجهتها. ظلت الأفئدة مغلقة على هواجسها، حتى تعالى صراخ هائل من جهة مدخل القرية؛ حيث المقابر.

كان الصوت مشروخًا ملتاعًا وخشنًا، ينخفض حينًا قبل أن يعاود ارتفاعه، غير أن منسوب اللوعة ثابت. شعرت ليلى في تلك اللحظة البعيدة بأن اللوعة والألم يمكن قياسهما بدقة عبر جهاز ما، وأن أذنيها هما هذا الجهاز.

عرفت على الفور، أن الصوت للمرأة الساكنة في البيت الملاصق للمقابر. كانت واثقة من هذا على الرغم من أنها لم يسبق لها سماع هذه المرأة تتحدث قط، حتى حين كانت تلقي عليها تحية الصباح، إذا حدث ورأتها تتابع الطريق من خلف نافذتها المواربة، كانت المرأة تتجاهل الرد.

لاحقًا تأكدت ليلى من صدق حدسها. كانت المرأة، المتدثرة بالتجهم دومًا، هي الصارخة الأولى، بعدما رأت عبر نافذتها أن مياه المطر المنهمرة قد أغرقت المقابر، وهدمت أسطحها، فتركتها فاغرةً أفواهها، مختنقة بالماء.

حكى أهل القرية ممن توافدوا على المكان، أن المرأة عادت للاختباء في منزلها ما إن اطمأنت إلى وصول رسالتها إلى المستهدفين منها. لم يتذكرها أحد سوى بعد انتهاء المعمعة. كانوا جميعًا منهمكين في إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

في ظل استمرار انهمار المطر، لم يكن أمامهم الكثير لفعله، حاولوا فقط فرد عروق وألواح خشبية فوق أسطح المقابر، وتغطيتها بشكائر بلاستيكية أو بالمشمع. لم ينجح هذا في إيقاف تسلل المياه إلى الداخل، لكنه كان أقصى ما يمكنهم فعله. غضَّ معظمهم بصره عن النظر إلى العظام العائمة في المياه الموحلة. وبكت النسوة موتاهن كأنهم رحلوا للتوهم، أما ليلى فاختبأت في فراشها وتغطت ببطانية سميكة. النوم ملجؤها الآمن، لكنه عَزَّ عليها يومها لأن الحادثة وقعت صباحًا، وكانت هي قد حصلت على حصتها كاملة من النوم في الليلة السابقة. ومع ذلك ظلت مغطاة ومغمضة عينيها مثلما تفعل حين يفاجئها الطقس بعاصفة رعدية ليلًا، فتترك ما في يدها وتختبئ تحت الأغطية مبتهلة - وقد غاب عنها التماع البرق- أن يتوقف الرعد بدوره عن ضجيجه.

ذهبت أمها مع أبيها وأخيها إلى المقابر، وتركوها وحدها في المنزل. من بعيد وصلتها أصداء ولولة مكتومة، وراح خيالها يصوِّر لها صورًا شتى لما يحدث هناك. كانت الصور تتجمع معًا لتصبَّ

في مشهد واحد لشبح رمادي عملاق يكاد يخفيه الضباب وهو يرفع ذراعًا تلامس قمة شجرة توت معمرة. خبت من ذهنها الممرات المزروعة بالصبّار والريحان، وتجلى فقط سديم يتربص بها خلفه كل ما يخيفها.

في اليوم التالي، انقطع المطر وسطعت الشمس. بدا كل شيء مغسولًا زاهيًا إن امتنع المرء عن النظر لأسفل؛ حيث الأوحال وبرك مياه المطر المعكرة بالطين والشوائب. انشغل الجميع في تحجيم الخسائر، عملوا أولًا على تجفيف التُّرَب فاغرة الأفواه، ولمّ عظام الموتى. ارتبكوا أمام معضلة هل عليهم الصلاة على الرفات قبل دفنها مجددًا؟ وإن كان الأمر كذلك، فأي صلاة يصلون؟

لم يكن شيخ الجامع موجودًا؛ لأنه من قرية أخرى، ويأتي لجامعهم فقط وقت صلاة الجمعة من كل أسبوع ليخطب فيهم ويؤمهم. ومنعتهم الطرق الزلقة من الذهاب إليه لسؤاله، فاكتفوا بصلاة جنازة جماعية، ثم أعادوا بناء الأسقف المهدمة.

في خطبة الجمعة اللاحقة تحدث الشيخ عن طرق الدفن الشرعية، وكيف أن الموتى يجب أن يُواروا التراب، لا أن توضع جثثهم داخل تلك الأضرحة الأشبه ببيوت صغيرة مقشفة. استمع له الأهالي بخشوع، لكنهم لم يبادروا بتغيير يُذكر في مدافنهم. تركوها كما هي، وإن احتاطوا بعد هذا في ترميمها وتقوية أسقفها تحسبًا لغدر الأمطار والعواصف.

من جانبها، أقنعت ليلى نفسها بأن ما حدث مجرد حدوتة حكتها المرأة المقبضة لأهل القرية، كانت صرختها محاولة للفت الانتباه،

وما إن تدافع الأهالي لاستيضاح الأمر، حتى أسرتهم بصوتها المشروخ المنبعث من بين خصاص نافذتها المطلة على القبور. خلبت لبّهم بطريقة ما، وقصّت عليهم قصة مطر فاض وغزا أراضي الموت، وكشف رفات الأحبة الراحلين لفيضه.

تعرف ليلى أن المرأة غريبة عن القرية، جاءت إليها عروسًا شابّة من إحدى قرى الشرقية، وحرصت على عدم الاندماج مع محيطها الجديد إلّا في أضيق الحدود. فكرت ليلى في أن تلك الغريبة قد سمعت من زوجها بفيضان النيل قبل بناء السد العالي، وربما أرادت أن تحاكيه بفيضان آخر -مصدره السماء هذه المرة- لا يبقي ولا يذر.

تغافلت الصبية عمدًا عن أن المطر الغزير حقيقة لا يمكن إنكارها، ثم لم تعد قادرة على مواصلة تجاهله، ففكرت في أن المرأة استغلت المطر لحبك قصتها.

مع مرور السنوات، اضمحلت هذه الذكرى داخلها، واختلطت بحكايات الكبار عن فيضان النيل، فكانت القبور المفتوحة تبدى لها كما لو أنها من فعل النهر الغاضب. وكلما جلست على شاطئه لتأمل صَفحته البعيدة، كانت تتساءل: كيف يسع هذا الكيان الأليف أن يعيش بماضٍ موسوم بكل تلك النقمة؟!

في المنيا؛ مدينة زوجها، استمرّت ليلى في توطيد علاقتها بالنهر. بعد أن انقطعت السبل بينها وبين عائلتها، بات هذا المجرى المائي الكتوم والمثير لخيالاتها الرابط الوحيد بين حاضرها وماضيها. صحيح أن الحواجز بينها وبينه صارت أكبر؛ إذ لا يمكنها مثلًا التخفف من ملابسها والسباحة فيه كما اعتادت في السابق، إلّا أنه لما يزل صديق طفولتها وصباها.

«يا أنا ولا زيي، زي القمر، يا أنا ويتمشي في ضيي».

في مطبخها بشقة المنيل، اعتادت ليلى أن تغني لنفسها متذكرة حياتها البعيدة؛ طفولة لم يعد يربطها بها شيء. تشعر بصوتها غريبًا نائيًا كأنما يصدر من غور سحيق. تتذكر شباب قريتها، وقد وقفوا في الشارع منتظرين خروجها؛ كي يحظوا بنظرة منها في طريقها لجلب المياه أو لشراء احتياجات البيت؛ بيتهم المشيَّد بحجرٍ أبيض في وقت كانت فيه بيوت القرية كلها مبنية بالطوب اللَّبِن.

شرفته تتسلق عليها شجيرة لبلاب تتخطاها لتصل حتى السطح؛ حيث تفترش بزهورها الأرجوانية مساحة منه، وخوشه مرشوش بالماء دومًا وتظلله شجرة توت «تَخَدّ الجميل» عالية.

في واحد من مشاويرها إلى النيل، كانت ترتدي عِقد كهرمان موروثًا عن جدتها. تعثرت في حجرٍ بالطريق وانكفأت على وجهها، ثم وهي تنهض علق العِقد بعصا على الأرض، وانقطع خيطه فانفرطت حبّاته، وجلست هي تجمعها باكية، ثم صرّتها في طرف طرحتها الشيفون وردية اللون.

أخفت الحبات المنفرطة بعيدًا عن عينَيْ أمها، لكنّ العينين اليقظتين انتبهتا إلى غياب العِقد. سألت ابنتها لماذا لا ترتديه، فتلجلجت

ولم تُجب. تحت إلحاح الأم، قادتها إلى صندوق الملابس؛ حيث تخبئ الأحجار الصغيرة الملفوفة في الطرحة الوردية.

امتقع وجه الأم، ولم تفهم الابنة السبب. تعرف فقط أن أبسط الأشياء، تتحول في نظر أمها إلى مأساة. كانت لا تنظر إلى الأمور بمنظار غيرها. من العبارات غير المترابطة؛ فهمت ليلى أن عِقد الكهرمان كان تميمة جالبة للحظّ والخصوبة، وانقطاعه سوف يتسبّب لا ريب في عثرة ما.

أحضرت الأم خيطًا متينًا، وانشغلت في لضم الحبّات من جديد. انغمست بالكامل في مهمتها تلك، وراقبتها الابنة حائرة: ماذا عليها أن تفعل؟ أتغادر الغرفة كي تطهو طعام الغداء، أم تكنس البيت، أم تظلّ في مكانها في حال احتاجت أمها إلى شيء؟

تفشل دومًا في توقع ما الذي تريده منها؛ فتكتفي بالبقاء في مكانها كالمقيّدة. في الغالب يكون ما اختارت فعله ليس ما ترغب أمها فيه؛ فينتهي الأمر بتعنيفها والشكوى من انعدام حصافتها. لكن كل هذا لا يُقارَن بما يحدث بينها وبين أبيها، فأمها، على الأقل، تصالحها في النهاية، وتعطف عليها دومًا، حتى وإن كانت تبالغ في مخاوفها وتحذيراتها.

في تلك الأيام، اعتادت ألّا تتجاهل الجانب الحنون في شخصية أمها. لاحقًا، لطالما غمرها الأسى كلما فكرت في حماقات تلك الفترة التي اعتادت أن تمعن فيها في إبراز اختلافها عن أبويها، وعن أمها على وجه الخصوص. باتت تدرك أن الاختلاف وهم، وأن كل شخص يمرّ بدائرة محكمة سبقه إليها الآخرون بالتتابع ذاته تقريبًا. غير أنها ما إن تطمئن إلى فكرتها هذه، حتى تتذكّر ابنها

هشامًا، فتهش الفكرة بعيدًا عنها. لا يشبه وحيدها سوى نفسه. ناءٍ وغريب الأطوار والتصرفات. أغرب حتى من والده. تلوم نفسها على هذا؛ أولًا لاختيارها أباه - بكل ما تحمله شخصيته من هوائية وعدم استقرار- زوجًا. وثانيًا لأنها لم تتعامل مع حبل سرة ولبدها، عقب جفافه وسقوطه، كما ينبغي.

لطالما عرفت من أمها أن حبل سرة الطفل يجب تركه عند صانع أو في سوق عامرة جلبًا للثروة والرزق أو في مسجد جلبًا للبركة ورواج الحال، ومع هذا بمجرد انفصال الجزء المتبقي من حبل سرة هشام عن جسمه، صرته في منديل وخبأته في سوتيانها، على مقربة من قلبها، ولمَّا ظهر زوجها، وعاد بهما إلى شقة المنيا، قصدت الكورنيش في اليوم التالي. اختارت مقهى هادئًا وجلست إلى طاولة ملاصقة للنيل. متجاهلة دهشة النادل طلبتْ حلبة بالحليب لزيادة غزارة اللبن في ثديها، وفيما ترتشف مشروبها رددت دعاءً بالسعادة والحظ ورمت السرة في الماء. كان الهواء شديدًا والأمواج هائجة نسبيًا، فجرت السرة واختفت من مجال بصرها سريعًا.

وقتها، فسرت هذا برواج حال مستقبلي تتبعه سعادة وبركة، لكنها انتبهت لخطئها فيما بعد. فسريان النهر الدائم من المنبع إلى المصب حرم ابنها نعمة الاستقرار، وأورثه حيرة مستمرَّة بين المنبع والمصب، أو ربما حتى أورثه الميل إلى الضياع كوالده.

دفعت حسابها، وقامت مسرعة للحاق برضيعها - الذي كانت قد تركته نائمًا في رعاية جارتها- قبل استيقاظه. في طريق عودتها، فكرت في أن أمها أخبرتها يومًا بأنها تركت سرتها هي في محل أشهر جواهرجي في محافظتهم الشمالية.

اعتادت كلما تذكرت تلك التفصيلة في شيخوختها، وهي تروي أصص النعناع والريحان في شرفتها أو ترتب شقتها، أن تردِّد بصوت عالٍ، غير آبهة بمستمع محتمل، أن هذا لم يحسِّن حظها أو يسهِّل حياتها، وفي الحال ترتسم في ذهنها حبَّات الكهرمان المنفرطة والمختلطة بالتراب. كانت فصوص الكهرمان المتربة أول ما يطرأ على ذهنها مع أي خسارة: لون شبيه بلون عسل النحل وإن كان أشد دُكنة منه، غبَّره التراب، فصار يشبه أيامها الرتيبة المغبرة بالتكرار والملل.

عاشت سنواتها اللاحقة مؤمنة بأن مستقبلها البائس قد تحدَّد في تلك اللحظة. لم تفلح محاولات أمها لإعادته إلى مساره الصحيح عبر إعادة لضم العقد من جديد. لا يأتي الحظ سوى مرة واحدة، وهي - في طريقها إلى الحظ الحسن- تعثرت في النحس شخصيًا فلم يغادرها من لحظتها، تمامًا مثلما تعثرت في ذلك الغريب ذي النظرة الناعسة والصوت الهادئ بمولد السيد البدوي.

«شي الله يا شيخ العرب يا سيد».

«الله الله يا بدوي جاب اليُسرى[1]».

هكذا كانت تترنم بصوت عالٍ كل مرة تسمع فيها أو يخطر ببالها اسم السيد البدوي، قبل أن تنتبه فتهمس بالجملتين وهي تنظر نحو غرفة هشام، وتعترف، في سرها، بأن تعثرها في الغريب بين جنبات المولد، لم يكن سيئًا من جميع الجوانب، لو أرادت أن تكون منصفة.

كان الذِّكر يتعالى من كل صوب، وهي في طريقها لشراء فطيرة تاقت إليها نفس أمها، المتربعة بين الجمع القادم من قريتهم إلى

---

(1) الأسرى

طنطا؛ لحضور الليلة الكبيرة في رحاب مسجد شيخ الطريقة الأحمدية المولود بـ«فاس».

كادت الفطيرة تسقط من يدها حين اصطدمت به. أمسك بها ليحفظ توازنها المختل، فرفعت رأسها لتكتشف أن سنتيمترات قليلة ما يفصل وجهه عن وجهها. خلّصت نفسها من يده، وتراجعت للخلف دون أن تبعد عينيها عن عينيه. ارتجف قلبها، وشعرت كما لو أن زخة مطر عنيفة قد هطلت عليها وحدها، ثم لاحظت أنه لم يكن أفضل حالًا منها، لكنه -على الأقل- كان جريئًا حدّ الوقاحة. هذا ما لمسته من نظراته، التي دفعتها للظنّ للحظة، أنه باغتها وقد خلعت ملابسها في حِمى أشجار الجوافة؛ استعدادًا للسباحة - كعادتها- في نيل قريتها حين تخفّ الحركة قرب النهر.

بعد لحظة الشكّ هذه، اطمأنت إلى أنها بكامل ثيابها. مرّت بجواره، فلم يفسح لها مكانًا يمكّنها من العبور دون ملامسته. برغم خجلها، خصته بنظرة لوم لا ارتباك فيها هذه المرة. وسط الزحام مرّر سبابته على ظاهر يدها.

كانت حركة خفيفة عابرة، ومع هذا شعرت كما لو أن كهرباءً قد مستها. أعطت لأمها الفطيرة وانكمشت على نفسها بجانبها، ثم التصقت بها غير قادرة على السيطرة على أعصابها. لم تبصره مرة ثانية ليلتها، ومع هذا كانت واثقة من أنه يتابعها من موقع ما بين زحام المولد وأناشيده.

ابتهلت في سرها كي تراه مجددًا قبل العودة إلى قريتها في اليوم التالي. لم تكن تعرف وقتها أنه قادم من المنيا خلف أحد منشدي السيرة الهلالية، ولم تتخيل أنه قرر ترك كل ما وراءه للحاق بها ومعرفة كل شيء عنها وعن عائلتها.

لمحته يمرّ من أمام بيتهم بعدها بيومين، فلم تصدق عينيها. كانت مختبئة خلف النافذة، تنظر إلى الخارج من خصاص الشيش، حين رأته يتلكأ في المرور ويمعن النظر إلى البيت علّه يراها. لم تعرف ماذا عليها أن تفعل. فكرتها الأولى كانت أن تخرج راكضة إليه، غير أن حكمة مختلطة بالجبن منعتها من فعل هذا. مع رعشةٍ خفيفة في شفتيها وتسارُع في دقات قلبها، قررت المكوث حيث هي، أو للدقة لم تكن بقادرة على أي فعل آخر. ثم خافتْ أن ييأس ويغادر عائدًا إلى بلده إن لم يرها، خاصة أن أي غريب يمكن ملاحظته بسهولة في قرية صغيرة كقريتها؛ لذا قهرتِ ارتباكها وتعمدتِ الخروج أكثر من المعتاد بحجج وهمية، مع الحرص على التلكؤ أمام المقهى في الساحة الكبيرة.

في ذاك اليوم خرجتْ خمس مرات خلال ساعتين. تبعها في المرة التي اتجهت فيها إلى النيل. كانت عائدة بجوافة جمعتها من أشجار جدها الملاصقة للنهر حين اقترب منها. توقفتْ لا تدري ماذا عليها أن تفعل. انتظرت أن يتكلم معها، أن يسألها عن اسمها أو يخبرها بأي معلومة عنه، غير أن كلَّ ما قام به أنه تأملها مليًّا، وبدا على وشك قول شيء تراجع عنه في اللحظة الأخيرة، وغادر تاركًا إياها تضرب أخماسًا في أسداس.

مرَّ أسبوعان لم تره فيهما؛ فحاولت توطين نفسها على فكرة أن هذا الغريب سيظلّ غريبًا ولن تقابله، على الأرجح، مرة أخرى، لكنه عاد في النهاية ليطلب يدها من أبيها، الذي استقبله بترحاب واستمهله شهرًا كي يسأل عنه وعن عائلته قبل الرد.

قبل أن تنتهي المهلة أخبر أحدهم أباها أنه رآها معه على النيل، على مقربة من أشجار الجوافة. لم يصدق أبوها قسمها بأنها

لم تتحدث معه قط ولا تعرف اسمه حتى، لم يرق قلبه لتوسلاتها أن يثق بها. رفض مقابلته حين عاد بعد شهر، أخبره بحسم أن لا بنات عنده للزواج؛ فابنته مخطوبة لابن عمها. بكت وامتنعت عن الطعام، فزاد تصميم والدها على رفض تزويجها بالغريب، وأخبرها بأن ابن عمها أولى بها.

لدهشتها، لم يختفِ الغريب من عالمها تمامًا. صار ينتظرها من وقت لآخر بين أشجار الجوافة. لم يكن يدخل القرية نفسها، بل يتسلل من الحقول الواقعة على أطرافها إلى بستان جدها على شاطئ النيل.

في خميلة أشجار الجوافة شبه المغلقة على نفسها والمحاطة ببساتين الموز من ثلاث جهات وبالنهر من الجهة الرابعة، عرفت ليلى ما يلزمها معرفته عن ذاك القادم من الجنوب. هناك، تلقت قبلتها الأولى، وارتعشت على وقع لمساته وهمسه. هناك أيضًا، وافقت على المغادرة معه إلى مدينته بعد أن يعقدا قرانهما في مسجد السيد البدوي، على بعد خطوات من المكان الذي التقيا فيه للمرة الأولى.

بعد مرور أكثر من أربعة عقود على كل هذا، صارت ليلى تفضّل أن لا تتذكر هذه التفاصيل، باتت ترغب في محوها والعودة إلى تلك الصبية خالية البال التي كانت إياها.

لَكَم تمنت ليلى لو ظلّ الغريب غريبًا!

-٣-

لا تدرك ليلى أين هي! ترغب في النهوض لترتيب شقتها وطهي الطعام وسقي أصص الريحان والنعناع في بلكونتها، لكن كيف لها أن تفعل هذا فيما تشعر بنفسها طافية مثل كائن رخو؟ لا، بل مثل كائن ذاب جسده وتبخر. تتذكر حبّات كهرمان منفرطة من عِقد، تنكبُّ هي على جمعها من الأرض، تمسح عنها التراب، وتضعها في حِجر جلبابها؛ عِقد موروث عن جدتها خديجة، أهدتها أمها إياه طالبة منها توريثه بدورها لابنتها حين تتزوج وتنجب.

لم تحمل العِقد معها حين فرّت مع الغريب، ولم تعد للانشغال به إلا بعد سنوات طويلة. يخطر لها أنه لم يُفِدْ جدتها في شيء، لم يحمها من خرف الشيخوخة، ولا من الميل للضياع على الطرقات والولع بها. تفكر ليلى أنها ربما لو تمكنت بمعجزة ما من رد العِقد إلى جدتها لعاد كل شيء إلى نصابه.

تقول، دون صوت أو كلام، إنها صارت كجدتها، كومة عظام غير قادرة على الخطو أو النهوض، مع فارق أن الشيخة خديجة ظلّت، حتى آخر أيام حياتها، حريصة على جلسة شيخوختها فوق فروة الخروف، تراقب الشارع عبر فرجة الباب، أما ليلى فلا تكاد تعرف إن كانت لا تزال حيّة أم رحلت إلى عالم آخر لا أجساد

ولا أصوات ولا مناظر فيه، فقط ذكريات تسري في الرأس، وأفكار تتوالى على الذهن بلا ضابط ولا رابط.

تشتاق إلى ابنها هشام ولا تفهم أين اختفى، ولا كيف طاوعه قلبه على هذه القسوة! تشعر بالأسف عليه. كم عمره الآن؟! تفكر.

في بداية الأربعينيات، أم في منتصفها؟! يربكها الخاطر. لم تنظر إلى وحيدها قط سوى كطفل يحتاج إلى الرعاية والإرشاد دون الاستغناء عن التوبيخ إن لزم الأمر، وكثيرًا ما لزم، خاصة فيما يتعلق برفضه القاطع للزواج.

ينتابها الفضول أحيانًا لمعرفة إن كان شقيقها قد تزوج وأنجب، أم لا! ألَه ابنة انتقل إليها عقد الكهرمان، أم ابن لا يعرف عن عمته ووحيدها شيئًا؟! ينقبض قلبها، ثم تسخر من نفسها، متعجبة كيف تنشغل بهذه الأشياء وهي لا تفهم حقيقة وضعها! أين هي؟ ولماذا لم تعد تتألم؟ وما سبب هذا الشعور بالطفو المسيطر عليها؟

ثمة فقط صمت وفراغ وظلمة لا تمنع الرؤية. أو ربما لا تكون ظلمة. تفكر ليلى.

ما يحيط بها يصعب وصفه، وهي لم تكن ماهرة في الوصف يومًا. أجادت فقط الشجار والجدل وتبكيت من يضايقها ببراعة تُحسد عليها، لكنها لطالما عجزت عن الوصف أو التعبير عن الحب والعطف. تؤمن بأن البعض يولد غير مبرمج على التعبير عن مشاعر الفرح أو الرضا أو المحبة حتى لو كان غارقًا فيها، يختبرها بالصمت وحده.

يلازمها إحساس الطفو. تجد نفسها سابحة في فضاء متأرجح تأرجحًا خفيفًا، كأنها محمولة على سطح الماء، كأن النيل يحتضنها

حاملًا إياها في رحلته نحو الشمال. بلا فيضان ولا جنيات استعادها النهر من جديد، ليس كسبّاحة تختلس خلوتها به وقت غياب الآخرين، بل كروح تطفو على سطحه متحدةً به متنقلة معه من بلدة إلى أخرى؛ علّها تصل – في نهاية المطاف – إلى مسقط رأسها.

تغمرها فجأة خفة لانهائية. تنكشف حُجُب لطالما عتّمت بصيرتها في السابق. تتبدى لها المرأة المتشحة بالأسود، ساكنة البيت المجاور لمقابر قريتهم. لم تعد على تجهمها القديم. صارت أليفة ومرتاحة على نحو ما وهي منهمكة في فعل شيء لم تميزه ليلى في البداية، ثم سرعان ما انتبهت إلى أكداس من الياسمين، تحاول المرأة تنظيمها في أشكال هندسية. تجلس بينها، وتتحسس الزهور الأثيرة وتقسّمها إلى أكوام أصغر، ثم تنفض يدها بقوة فيتطاير الياسمين في كل الجهات، وفي الحال يشرق عقل ليلى بفكرة أن روحًا نبيلة مُعلّقة في كل زهرة من الزهور المتطايرة.

تختفي المرأة كما ظهرت وتحلّ محلها الجدة خديجة في كامل عنفوانها قبل الخرف والشيخوخة. تتبدى صبية بملامح حادّة ونظرة عالمة تسير في صحراء شاسعة، لا نسمة هواء في الفضاء ولا واحة ولا بئر ماء في الجوار، ومع هذا تخطو الجدة بلا تردد، وتتوقف قليلًا، من وقتٍ لآخر؛ لتتفحص ثيابها عند الخصر، وحين تطمئن تواصل مسيرها.

ترى ليلى أمها تلضم حبات الكهرمان معًا في خيط فيما تترنم بموّال عن الصبر والانتظار، وأباها جالسًا تحت شجرة التوت في حوش بيتهم يقرأ القرآن، وزوجها؛ الغريب الهائم على وجهه أبدًا، منتشيًا بإنشاد جابر أبو حسين لقصة معركة حسن ودياب وغانم مع

أبي زيد الهلالي. تقترب منه امرأة سواها بكوب شاي شديد القتامة، فيمدُّ يده لالتقاط الكوب منها، ويجلسها بجواره. تتساءل ليلى عن هوية المرأة بلا رغبة حقيقية في معرفة الإجابة.

ينبسط النيل أمامها فجأة كما لو أنه اتسع ليشمل العالم بأسره، فتتذكر ليلى أنها ولدت ابنها هشامًا على مقربة منه، لا يعني هذا فقط أنه وُلِد في قرية أو مدينة يمرُّ بها النهر العظيم، بل إنها أنجبته حرفيًا على ضفته. كانت في شهرها التاسع، مضطرة لجمع محصول البامية المزروعة في أرض جده لأبيه وحدها. غاب زوجها في واحدة من اختفاءاته غير المفهومة بالنسبة إليها، وطلب والداه منها البقاء معهما في قريتهما - التابعة لمركز بني مزار - خوفًا من أن تفاجئها آلام المخاض وهي بمفردها في شقة المنيا.

لبّت دعوتهما على مضض، لكن بدلًا من أن تسكين للراحة في آخر أسابيع الحمل، وجدت نفسها مطالبة بالمساعدة في الحقل. لم تمانع لأن الأرض الزراعية الملاصقة للنهر، أو البحر كما اعتادت تسميته، ذكرتها بمسقط رأسها وأشعرتها بأنها عادت بطريقة ما إلى أهلها وأيامها الخوالي.

كانت منحنية على نبتات البامية لقطف ثمراتها غير عابئة بأشواكها الخفيفة، حين شعرت بألم هائل وبلزوجة ملحوظة بين ساقيها. طمأنت نفسها بأنها نوبة طلق عابرة، سوف تتمكن من العودة لبيت حمويها بمجرد انتهائها وقبل أن ترتدَّ عليها. قدّرت أن الولادة لن تحدث قبل منتصف الليل. نظرت إلى شمس المغيب كأنما تتوقع منها تأكيدًا لم يأتِ بطبيعة الحال.

تسارع الطلق، ثم انساب سائل دافئ من داخلها، بالكاد تحركت إلى نهاية الحقل؛ حيث النهر وشجرة الصفصاف المائلة أغصانها

نحو الماء. تشبثت بالأفرع المرنة للصفصافة وهي تكتم صرخاتها. بدأت الشمس تختفي تاركة خلفها أثرها البرتقالي يُلوِّن السماء وظلمة تزحف رويدًا. لا أحد في الجوار، وماء النيل يتهادى في صمت يوحي لمن في نطاقه بأن هذا النهر موطن للسكون ولم يعرف الحركة يومًا.

خُيِّلَ إليها أنها غفت، ثم أفاقت على صرخات وليدها لحظة خروجه إلى العالم. وبين الإغفاءة والإفاقة، شعرت بكائن نوراني يخرج من الماء كي يساعدها في الولادة. كائن أنثوي بشعر فاحم طويل وجسد أثيري لا يكاد يُرى. حضرت حماتها بعد قليل بحثًا عنها لأنها تأخرت في العودة للبيت، واستغاثت حين رأتها راقدة غير قادرة على التقاط أنفاسها ووليدها العاري المبلل بسوائل الرحم اللزجة بين ساقيها لا يكفّ عن الصراخ.

لبّى أولاد الحلال نداء الاستغاثة، واستقدموا القابلة؛ فقطعت الحبل السري، الذي أُلقيَ لاحقًا في نيل مدينة المنيا، وحُمِلت ليلى ووليدها إلى بيت حمويها. لأيام سكنتها نبوءة قديمة لمتسولة غجرية قرأت كفها في طفولتها وأخبرتها بأن الماء سيبتلع نسلها؛ ففي أعماقه قبرها وقبورهم.

لم تكترث ليلى وقتها لكلمات المرأة؛ إذ بدا لها المستقبل بعيدًا والنسل مجرد فكرة لا تخطر بالبال، لكنها في فترة نِفاسها وجدت نفسها في براثن كوابيس تجتاحها فيضانات لا تبقي ولا تذر. مع رجوعها إلى شقتها في المنيا بعد ظهور زوجها مجددًا، اختفت الكوابيس وغابت النبوءة تدريجيًا في صحراء النسيان.

والآن تستحضرها ليلى بكثافة شمس الظهيرة. تفكر فيها فيما تطفو فوق السطح المتهادي برفق وهي تتنقل بين وجوه كل من

عرفتهم في حياتها باستثناء أخيها وابنها. لا يتجليان لها، لكن هشامًا حاضر معها بطريقة ما. من جهة خفية تصلها ذبذبات قلقه وأحزانه وارتباكاته.

كان آخر من رأته في المنيا. عاد يومها إلى البيت غاضبًا مكفهرًا كعادته في السنوات القليلة الأخيرة. عاتبها لأنها نسيت تناول الدواء، وأصرَّ على أن يصحبها للطبيب. تجاهل اعتراضاتها وأعانها على ارتداء عباءتها السوداء، وسندها طوال الطريق، لكن بدلًا من التوجه إلى العيادة الكائنة في ميدان «بالاس»، أخذها للجلوس على النيل.

«شوية هوا نضيف، وكله هيبقى تمام».

أراحها قراره، لم تعد تُحبُّ هذا الميدان، ينقبض قلبها كلما اضطرت للمرور به خلال زياراتها الدورية للطبيب. بدأ هذا وقت اعتصامات ٢٠١٣ وما تلاها من عنف فيه. كلما خرج هشام، في تلك الفترة، كانت المخاوف والهواجس تفترسها حتى يعود.

في جلستهما الأخيرة، لاحظت ليلى تحاشيه النظر إليها. كان غائب الذهن مهمومًا بما لا تعرف ولا تفهم خاصة في ظل انصلاح أحواله المادية بدرجة لم تكن هي لتتوقعها أو تحلم بها. تتذكر سيرهما معًا بموازاة النهر وتعثرها في حجر، ويدًا امتدَّت إليها، فتشبثت هي بها.

كان الهواء الخفيف يهزُّ الأوراق العريضة لأشجار الموز على الضفة الأخرى، والنيل هائجًا يذكِّر بالنهر القديم الغاضب في حكايات الأسلاف، وكانت اليد حنونة في البداية، ثم استحالت إلى أخرى غاضبة وحاقدة، التجأت إليها ليلى فدفعتها اليد بعيدًا بدلًا من أن تضمَّها وتحنو عليها.

ثم تلاشت اليد، وغلب التعب ليلى؛ فتهاوت وقد غاب عن ذهنها كل شيء باستثناء آهة لوعة وألم من صوت يشبه صوت ابنها، وصخب ارتطام بدنها بالماء. اخترقت صرخة هائلة أذنيها، وانغرز عدد لانهائي من الشوك في روحها، وانطبقت السماء على الأرض وانسحقت هي بينهما، قبل أن تغمرها السكينة ويتلوّن عالمها بأبيض ناصع، ويهدهدها تيار الماء المتهادي، فيبدأ شعور الطفو على كل شيء: آلامها وخيباتها وعمرها وجسدها نفسه.

داخل لوحة شاجال

-١-

أفكر في عشرينية اعتادت حمل «تفسير الأحلام الكبير» للإمام محمد بن سيرين أينما اتجهت، فأوقن أنني لم أعد إياها، بل ربما لم أكن إياها يومًا. أنكرتُها، وتخليتُ عنها. تركتها عارية مرتعشة على قارعة طريق ما، ومضيتُ وحدي أتعثر في خطواتي.

أنظر في مرآتي، فأفاجأ بعينيها تنظران لي. لا يذكرني بها سواهما. وجهي المنحوت بدقة لا يكاد يشبه وجهها المائل للامتلاء في شيء، والتجاعيد الرفيعة حول الفم وفوق الجبهة تبعدني عنها أكثر، أما جسدي المحاصر بشحوم مستجدة فيقول لي: «ألا ليت الشباب يعود يومًا...».

العينان وحدهما، ببسمتهما الخفيفة حتى في أقصى درجات الحزن، هما ما يصلان بيني وبينها، ومعهما نسخة كتاب ابن سيرين، الموضوعة دومًا قرب سريري، وقد اهترأت بعض صفحاتها بفعل الزمن وكثرة الاستخدام.

ليس مجرد كتاب، ولا محض وسيلة لتفسير ما غمض من أحلامي، بل أيضًا الشعرة الوحيدة الرابطة بيني وبين أحد أعقد أطياف ماضيّ؛ وأعني به هشام خطّاب.

ربما أكون قد فقدت صلتي بصورتي القديمة يوم اختفى هو من عالمي، أو ربما اختفى هو يومَ لم أعد الشخصية التي كنت إياها فيما سبق.

لا أعرف. الافتراضات كثيرة والشكوك أكثر، لكن اللحظة التي التقيته فيها عصر ذلك اليوم في أوائل الألفية الثالثة كانت واحدة من أحلى لحظات حياتي. كانت من خامة مؤهلة لإنتاج أجود الذكريات لاحقًا.

أي نعم. عشتُ حياتي بهدف إنتاج أكبر كمٍّ من الذكريات. كنت أختبر تجربة ما، فلا أنغمس فيها كلية، يبقى جزء مني يفحصها؛ ليرى إن كانت حُبلى بذكريات مشوقة أم لا! وقتها لم أفطن إلى أننا بدءًا من مرحلة عمرية معينة لن نحتاج إلى التشويق والإثارة، بل إلى العزاء والسلوى.

المهم، قابلت هشامًا لأول مرة في أغسطس ٢٠٠١. كان الجو خانقًا في أتوبيس النقل العام المتوقف في أول شارع الطيران، قرب تقاطعه مع صلاح سالم. من حسن الحظ أنني كنت قد خرجت قبل موعدي بوقتٍ كافٍ، فالشوارع كانت مغلقة في انتظار مرور موكب الرئيس.

حين تبيَّن لنا، نحن الركاب، خلو الأفق من أي إشارة إلى انفراجة قريبة، بدأنا الواحد تلو الآخر في النزول من الحافلة بغرض السير باتجاه شارع صلاح سالم.

كانت حركة يأس لا رجاء. عن نفسي، قررت المشي هربًا من سجن الصندوق المعدني الحارّ، نسيت الاعتراف بأنني مصابة بفوبيا الأماكن المغلقة وفوبيا المرتفعات والكلاب وفوبيات أخرى لا مكان لذكرها هنا. سرتُ لمسافة طويلة محاصرةً بسخط وغضب مكتومين للسائرين بجواري، وهم يرمقون السيارات المتوقفة في انتظار فتح إشارة المرور، ومحاطة بهمسات عن أن الموكب مرَّ بالفعل منذ فترة؛ وبالتالي لا ضرورة لاستمرار وقف الحال.

اخترت محطة أتوبيس، انتظرت عندها مع المنتظرين. من بين الوجوه العابسة، رأيت وجهه المبتسم كأنه زائر طارئ على هذه اللحظة، بل على العالم بأسره. كانت عيناه معلقتين بي، أو للدقة بالكتاب الذي أحمله.

في الأوساط التي كنت أتحرك فيها، كنت معتادة على التعليقات المستخفة بهوسي بهذا الكتاب.

«أنصحكِ بقراءة تفسير فرويد».

«تعرفين كارل يونج؟»

«يا مفسرين الأحلام عينيا مش ح تنام...».

كانت تلك هي نوعية التعليقات التي يجذبها رفيقي الورقي الدائم. أما مع هشام، فقد اختلف الأمر. سألني عن الكتاب باهتمام، ورغب في معرفة من أين اقتنيته.

«هاكون اشتريته منين يعني؟! من سوق عُكاظ؟! من على الرصيف اللي جنب محطة مترو الإسعاف. أيوه، بالظبط. من فرشة الكتب القديمة اللي قُدّام مكتب بريد الإسعاف».

هذا هو الردّ الذي خطر لي، بل الذي رددته بالفعل سرًّا، ثم قمعته وأجبت:

«من بياع كتب عند محطة الإسعاف».

كان غريبًا ولذيذًا ومنعشًا أن يعاملني شخص ألتقيه لأول مرة، بألفة من يستأنف حوارًا مع صديق قديم. تلفّتُ حولي، فوجدت أن الكلَّ غافل عنّا في حمى الانتظار والترقب.

ما هي إلّا لحظات حتى قبض على نسختي، وراح يقلِّب فيها بحثًا عمّا لا أعرف. وصل إلى صفحة، لم أتبينها وقرأ ما فيها باستغراق، ثم أعاد لي الكتاب وهو شارد.

تكلم عن طقس أغسطس والزحام وضجيج القاهرة، غير أنه كان قد هجر سيماء خلو البال البادية عليه قبلًا. فُتِح الطريق أخيرًا، وتسابقت العربات في السرعة انتقامًا من احتجازها كل هذا الوقت. دعاني كي أستقلَّ معه تاكسيًا بما أننا ذاهبان إلى وسط البلد.

«أنا أعرفك يا ابني عشان آخد تاكسي معاك؟!».

لم تخرج هذه الكلمات من سجن رأسي، قمعتها كالعادة وشكرته معتذرة خوفًا من أن يأخذ عني انطباعًا سيئًا. كنت في تلك الفترة أسيرة تصورات معينة. طلب رقم هاتفي فاكتفيت بإخباره أنّي أتابع عروض مركز الثقافة السينمائية في شارع شريف بانتظام.

«أما نشوف!».

وشُفت فعلًا. لم أره ثانية سوى بعد شهرين.

خارجة لتوي من عرض «الغرفة الخضراء» لفرانسوا تروفو، وجدته يدخن سيجارة بالخارج. قال إنه أتى إلى هنا أكثر من مرة ولم يصادفني.

«كنت تعبانة لأسبوعين، وكسلت آجي في التالت».

لم أكن قد انقطعت عن عروض المركز لمرة واحدة على مدى الشهرين، ومع هذا تواطأتُ مع كذبته البيضاء.

استنتجتُ أنه تعمد التأخر في القدوم بحثًا عني؛ في محاولة منه لإرساء قواعده الخاصة. مشينا حتى «فلفلة»، أكلنا كشري بالكفتة هناك، ثم قصدنا «زهرة البستان» حيث جلسنا لساعتين أو أكثر.

بعد مغادرتي إياه، اكتشفت أن أحدنا لم يكد يقول شيئًا خاصًّا للآخر، برغم عدم انقطاعنا عن الحديث ولو لدقائق. أدركت مثلًا أنني لم أعرف سوى اسمه الأول، ولم أسأله عن رقم هاتفه، أو

عن إن كنا سوف نلتقي ثانية أم لا. ولم يسألني بدوره عن أي شيء شخصي. ثرثرتنا بدت شائقة في حينها، لكن تفاصيلها تبخّرت من رأسي بمجرد عودتي إلى البيت.

«ودارت الأيام، ومرّت الأيام...».

ولم أره مجددًا سوى بعد شهرين آخرين، كان المركز يعرض فيلم «وداعًا للغة» لجان لوك جودار. حضر العرض من أوله. جلس بجواري منغمسًا في المشاهدة كأنما نسيَ وجودي.

«اللهم طوّلك يا روح!».

كنت أختلس النظر إليه، فأندهش من تأثير المشاهد المتتابعة على وجهه. في أثناء خروجنا من بناية مركز الثقافة السينمائية، أهداني مجلدًا لرسومات مارك شاجال؛ مقدمته والتعليقات على اللوحات مكتوبة بالروسية، قال إنه عثر عليه بين فرشات الكتب القديمة بسور الأزبكية. تصفحته فشعر بأن نساء اللوحات يشبهنني. اختار لوحة «نزهة»، وفيها يقف شاجال بحلة سوداء مبتهجًا وممسكًا بيد زوجته بيلّا روزينفيلد شاجال المحلّقة فوقه في الفضاء.

أخرج من جيبه «كارت بوستال» للوحة نفسها ومنحني إياه. قال إنني بيلّا روزينفيلد.

«وماله! ما يضرش!».

تأملت اللوحة، فلم أضع يدي على مكمن التشابه بيني وبين المرأة المرسومة بداخلها. على الصفحة الأولى بعد غلاف المجلد، وجدت إهداءً بقلم حبر أخضر بخط هشام المرسوم بفن:

«إلى الجميلة الطائرة كما نسوة شاجال».

«كتّر خيرك والله».

تسكعنا في شوارع وسط البلد لبعض الوقت، ثم أوصلني إلى موقف عبد المنعم رياض كي أستقلّ الأتوبيس المتجه إلى مدينة نصر. هذه المرة، أعطاني قبل صعودي إلى الحافلة ورقة مدوَّنًا عليها اسمه كاملًا ورقم هاتفه.

كنت أطيل النظر ليلّا روزينفيلد كما تتجلى في لوحات شاجال أو في صورها القديمة على الإنترنت؛ فأقتنع شيئًا فشيئًا بأنّي أشبهها. بدأت أشاركه رؤيته لها باعتبارها «أجمل امرأة في العالم»، كما سبق ووصفها لي. صبغتُ شعري البني باللون الأسود مثلها، وقصصته على طريقتها، واجتهدت في الوصول إلى نظرتها العميقة ذاتها. لم أكن أسعى إلى تقليدها، أنّي لي تقليد امرأة لم أرها رأي العين يومًا؟! رغبت في أن أصير إياها.

لم يعلّق هشام قط على محاولاتي تلك. ظننتُ أنه لم يلحظها، وكان معي كلّ الحقّ في ظني هذا؛ نظرًا إلى تجاهله الإشارة ولو عابرًا إلى التغيرات الطارئة على مظهري. عوضًا عن هذا، أظهر اهتمامًا غريبًا بنسختي من مجلد «تفسير الأحلام الكبير» للإمام محمد بن سيرين. سألني، بل استجوبني مجددًا عن كل ما يخصها: لماذا أحملها معي دائمًا؟ من أين ابتعتها؟ وما سبب اهتمامي بها؟

في البداية، كنت أردّ عليه بصبر وبالتفصيل، برغم إعادته للأسئلة نفسها مرارًا وتكرارًا، ثم بدأ الأمر يستفزني، خاصة أنه لم يعاود الحديث عن شاجال أو بيلّا روزينفيلد، كما أنه من غير الطبيعي أن يهتمّ خبير في الكتب النادرة - كما يصف نفسه - بنسخة عادية من كتاب يُباع على كل الأرصفة تقريبًا. بثُّ أراوغه، وانتبه هو إلى هذا؛ فكفَّ عن أسئلته وطلب استعارة المجلد. أبقاه معه لفترة، وحين

أعاده لي، لاحظت تخطيطات بقلم أخضر تحت سطور بعينها، وملاحظات لم أفهم معظمها في الهوامش البيضاء للصفحات، تجاورها رسومات متكررة لزهور تشبه الياسمين.

لم أعلق على شخبطاته في كتابي، لكنني اعتدت تأملها من وقت لآخر. كنت أشعر كما لو أنها تغرقني داخل عالم أعجز عن تبين ملامحه، إلّا أنه يغويني بطريقة مبهمة. أحدق في الرسوم والشخبطات، فتتراءى لي بساتين من نخيل وأعناب تحيط بها من الخارج شجيرات ياسمين يكاد أخضرها يختفي خلف أبيض الزهور، ثم تبدأ الزهور في التساقط حتى تغطي أرضية البستان، قبل أن يتلاشى كل شيء، وتتبدى لي صفحة الكتاب بالتخطيطات تحت سطورها والرسومات العشوائية في هوامشها.

لم يعد الكتاب نفسه يجذبني بقدر ما تفعل شخبطات هشام الغامضة. أحببت فكرة أن أتعرّف عليه، عبر ما يدوّنه في هوامش كتبه الخاصة، فطلبت منه أن يعيرني كتبًا من مكتبته. ولشدّ ما كانت دهشتي حين وجدتها كلها خالية من أي كتابة أو رسوم أو حتى مجرد ثنية هنا أو هناك. باستثناء اسمه المدوّن على أول صفحة داخلية من كل كتاب منها، كانت جميعها كأنما خرجت لتوها من المطبعة. حتى النسخ القديمة منها، كانت الملاحظات المدوّنة بها بخطوط بعيدة تمامًا عن خطه المنمّق المرسوم بعناية.

نصحته بقراءة «المريض الإنجليزي» وأعطيته نسختي الخاصّة، وحين ردّها لي بعد فترة فتحتها بلهفة، فلم أجد أثرًا لمرور قلمه عليها. ولولا أنه ناقشني في أحداثها وشخصياتها، لظننته لم يمسسها.

حتى تلك اللحظة، لم أكن أعرف عنه ما يروي فضولي. كان اهتمامه بي جليًّا في نظراته وتصرفاته، لكن لم تبدر منه كلمة واحدة

تعترف بهذا الاهتمام أو تصفه. كان المسكوت عنه في علاقتي به أضعاف المعلن، لم يقلقني هذا وقتها. صبَّرت نفسي بأنها مسألة وقت لا أكثر، وانتظرت أن يعترف بحبِّه لي طال الوقت أم قصر، لكنه اختفى من عالمي لفترة.

«والغايب حجته معاه».

انتظرتُه في كل مرة ترددت فيها على مركز الثقافة السينمائية، وحين ظهر أخيرًا، أخبرني بأن والده تُوفيّ وأنه اضطرَّ للسفر إلى المنيا لمواساة أمه واستقبال المعزين. شرح أن أخبار أبيه انقطعت عنهم منذ سنوات، ووصلهم خبر وفاته في ليبيا مؤخرًا. كان يتحدث بعادية فسرتها بغياب الأب عن أفق حياته لسنوات طوال. اقتربت منه واحتضنته، ارتبك ونظر حولنا، ثم احتضنني بالمثل. أعرف أن حاجزًا كان يفصلنا سقط في تلك اللحظة. صرنا نلتقي بشكل شبه يومي. أغادر الجاليري حيث أعمل لملاقاته في أحد مقاهي وسط البلد، نختار مكانًا للأكل، ثم نتسكع كيفما اتفق، قبل توصيلي إلى موقف عبد المنعم رياض لأخذ الأتوبيس إلى البيت. لكن بدلًا من أن يوثِّق هذا كله الصلة بيننا، بدأت ألاحظ نأيه عني، وانفلاته من بين أصابعي.

كانت مياه كثيرة قد جرت تحت جسر علاقتنا حين فاجأني، بينما نجلس في مقهى محشور داخل ممرٍّ ضيِّق يربط بين شارعي محمود بسيوني وقصر النيل، بأنه لن يستطيع ترك أمه تعيش وحدها في حالتها تلك. لم يوضح ماذا يقصد بحالتها، واعتقدت أنا أنه سيقيم معها مؤقتًا حتى تتحسَّن أحوالها، ثم يعود للعيش في القاهرة. ولمّا أدركت مقصده لم تفلح كل محاولاتي في ثنيه عن عزمه الانتقال إلى المنيا بشكل دائم. لم أكن أعرف أن تواصلي معه سوف ينحصر

في مكالمات هاتفية يجود عليَّ بها، من وقت لآخر، ولا يشير فيها ولو لمرة واحدة إلى خصوصية ما جمعتنا معًا، ولا أردّ خلالها على أسئلته سوى باقتضاب هادف لدفعه إلى التوقف عن الاتصال بي.

«عايزنا نرجع زي زمان، قُل للزمان ارجع يا زمان».

اتسعت الفجوة الزمنية بين كل مكالمة وأخرى، وراحت فترات الصمت تطول خلال كل واحدة منها. بدا كأنما يجاهد بحثًا عن كلمات يمدُّ بها خيط الحديث بيننا، في حين كنت أتلذذ بحيرته وأندهش من إصراره على هذه المكالمات البائسة مع أنه فرَّ مني كالهارب من طاعون.

حتى جاء يوم قابلته فيه بالصدفة في شارع ٢٦ يوليو، تحديدًا قرب تقاطعه مع شارع طلعت حرب. رغمًا عني، تضايقت من أنه لم يخبرني بوجوده في القاهرة، ومع هذا بادرته بتحية، ردَّها باهتمام، لكنه بدا مشغولًا وتائهًا. دعوته إلى فنجان قهوة في مقهى «الشمس» القريب، فوافق بلا حماسة مصرًّا على أن يدفع هو.

اعترف بأنه يزور القاهرة، من حين لآخر؛ لأسباب ذات علاقة بعمله. كان تهذيبه مبالغًا فيه، ولاحظت أنه يتفادى النظر في عينيّ مباشرةً، دون أن أفهم سببًا لهذا. ودَّعني بعد أقلّ من ساعة. لم يهاتفني ولم أسعَ للتواصل معه بأي طريقة لسنوات بعدها.

أيقنت مع الوقت، أن ما بيننا، أيًّا كان وصفه أو مسمَّاه، لم يكن حبًّا. فكَّرت عند نهاية علاقتنا في أنني خسرته عند منعطف ما لسبب لا أدرك كنهه، والآن أشكّ في أنني قد ربحته يومًا.

أتذكره، فتتردد في ذهني كلمات أغنية نجاة: «كنت لسَّه في الحب لسّه بتعلم جديد. ما كنتش أعرف إن القريب منك بعيد».

أبدأ في الغناء، فأضحك ممتنة للزمن على نعمة النسيان.

- ٢ -

هل هناك ما يُسمَّى بـ«فوبيا» الرمل؟! لو كانت موجودة، فمؤكد أنني أعاني منها.

برافو!

رهاب جديد يُضاف بفخر إلى تشكيلة رهاباتي. لم أفكر من قبل في أن كراهيتي لتلك الحبيبات الصفراء الناعمة مَرَضية، لكن لهذه الفكرة وجاهتها؛ فمشاعري تجاهها عنيفة ومؤرِّقة تمامًا كمشاعري تجاه كل ما أعاني من رهابه.

لم يتوقف الرمل يومًا عن إزعاجي. مجرد رؤيته تترك مذاقًا مُرًّا بداخلي، مذاقًا يشبه الحسرة والندم ويجلب القشعريرة ووجع المعدة. خلال المرات القليلة التي ذهبتْ فيها عائلتي للتصييف في «راس البر» أو «مرسى مطروح» وأنا صغيرة، كنت أظلّ في البحر لأطول مدة ممكنة، ألهو مع إخوتي وأتعلق بأبي، فيما أمي تتابعنا من جلستها على الشاطئ.

كنت أمقت اللحظة التي أضطر فيها للخطو على الرمل بقدمَيَّ الحافيتين. لم ألعب فيه مثل الأطفال الآخرين قط، لم أبنِ قلاعًا سرعان ما يجرفها الموج، ولم أحفر حُفرًا أملؤها بدلو بلاستيكي صغير. اعتدت الجلوس على الكرسي الخاصّ بي وساقاي مثنيتان تحتي محاولة نسيان أن الرمل قد مسهما قبل قليل.

أغمض عينيّ، فيرتسم في ذهني مشهد عناكب تغزو بيتًا متربًا وعقارب تشقّ طريقها في صحراء.

«كومبو فوبيات يا حضرات! كوكتيل يفتح النفس. اتفضلوا معايا!! فوبيا العناكب وفوبيا العقارب وفوبيا الصحرا!!!!!».

الآن أعيش في مدينة «العبور» حيث يذكرني الامتداد المحيط بها بالصحراء، ويستحضر صورة الرمال في ذهني بلا انقطاع. أقنع نفسي بأنني محظوظة لانعتاقي من زحام القاهرة وضجيجها، لكنني في قرارتي أشتاق لكل تفاصيلها، أو للدقة أشتاق إلى صباي وشبابي الخاليين من الهموم في ربوعها، وأتوق إلى أحلام البدايات التي تخليتُ عن بعضها واستعصى عليّ بعضها الآخر.

فور تخرجي، حاولت العمل في الصحافة دون جدوى، سُدَّت الأبواب كلها في وجهي. كتبت تحقيقًا عن فناني ورش أفيشات الأفلام لإحدى المجلات، ففوجئت به يُنشَر باسم شخص آخر، وحين شكوت منحوني ثمانين جنيهًا، أي أقلّ مما أنفقت خلال مشاوير إعداد التحقيق. طرقت بعدها - عبثًا - أبواب مكاتب المجلات والصحف العربية في القاهرة، حتى أشفقَ عليّ موظف في إحداها، وانتحى بي جانبًا لينصحني بتوفير مجهودي إن لم تكن لديَّ وساطة قوية.

«ما تضيعيش وقتك يا بنتي لو معندكيش واسطة!».

عن طريق صديق، تعرفت عليه خلال ترددي الدائم على عروض مركز الثقافة السينمائية والندوات الثقافية المختلفة، عملت بأحد جاليريهات الزمالك. كان عملًا مسليًا، أمدني بعلاقات عديدة وتعلمت منه الكثير عن الفن التشكيلي.

في تلك الفترة تعرفت على هشام خطَّاب، لم يسألني عن عملي في البداية، واندهش حين أخبرته لاحقًا باسم الجاليري حيث أعمل: شاجال. حكيتُ له عن حلمي المَوْءُود بالعمل في الصحافة وبنسب تحقيقي الأول لشخص آخر، فابتسم ابتسامة ملغزة.

«عادي، بتحصل».

كان مدهشًا في ردود أفعاله؛ يضحك على أشياء مأساوية، ويغضب من تفاهات لا تستحق التوقف عندها، في وقت قد لا يعترض فيه على جرائم تُقترَف بحقه.

باح لي، حين توثقت علاقتنا، بأن نسب عملنا إلى آخرين يحدث بشكل يومي. لم أفهم ما يعنيه في البداية، فشرح لي بأنه يعمل مع باحث وكاتب معروف؛ يعاونه في جمع المادة البحثية، ويكتب تعليقات وملاحظات عليها، وفي أحيان كثيرة يُضمِّن الرجل هذه الملاحظات كما هي في كتبه وأبحاثه دون إشارة إلى كاتبها.

حين سألته غاضبة، كيف لا يعترض على أمر كهذا! هزَّ كتفيه بلا اكتراث ولم يعلِّق، وتحاشى فتح هذا الموضوع بعدها. نادرًا ما كان يشير إلى من يسميه أستاذه، وإن حدث وأشار إليه، يكن هذا في سياق آخر.

***

كان دخول هشام إلى حياتي وديعًا وتدريجيًا. بهدوء تغلغل في كل تفاصيلها، دون حتى أن يدرك ذلك.

«أهلًا وسهلًا! بيتك ومطرحك».

كانت كل أفعالي تخبره ضمنيًا بهذا، لكنه ظلَّ مترددًا يتقدم خطوة ويتراجع خطوات. تنحلّ عقدة لسانه ويستغرق في البوح

بأسرار طفولته وصباه أو بطموحاته ومخاوفه، ثم يرفع درعه غير العرفي حاجزًا بيني وبينه من جديد. كل مرة كان يحكي لي فيها بلا تحفظ عن نفسه، كنت أنتظر فترة هجران منه بعدها، أو على الأقل فترة تحفّظ يستحيل فيها قنفذًا يشرع أشواكه في وجهي. يصبح جارحًا في ردوده الخشنة وفي نوبات غضبه الفجائية وصمته العقابي على جرائم لا أستطيع تحديدها، أحدس بها فقط من نظراته الاتهامية لي. وفي النهاية، قرّر الفرار بتخلٍ صدمني، وإن منعني كبريائي من إظهار شعوري بالخذلان.

لم أقتنع قط بأسبابه المعلنة. أُدرك طبعًا أن والده كان قد مات قبلها بأشهر قليلة، لكنه قضى هذه المدة في القاهرة ولم يفكر في العودة للإقامة مع أمه في الحال. أظنّ أن الأمر لم يخطر بباله سوى بعد الحريق الذي وقع قبل قراره بمغادرة القاهرة بثلاثة أسابيع. خلال تلك المدة بدا لي تائهًا زائغ النظرات، فسّرتُ الأمر في البداية بالحزن، واندهشتُ أن حزنه لم يبلغ هذا المدى حين رحل والده. كنت أكذّب حدسي ومعرفتي بشخصيته على مدار أربعة أعوام؛ فهشام الذي أعرفه لا يبالي بالموت ولا بالكوارث حدّ إحساسي أحيانًا بأنه مولود بلا ذرة من عاطفة التعاطف. اعتاد التعامل مع أي شيء برواقية لم أتمكن قط من تقبُّلها. المرة الوحيدة التي رأيته فيها مستجيبًا لحدث خارجي بدرجة ملحوظة تمثلت في غزو العراق.

في تلك الفترة كان يتابع تطورات الأحداث كأن حياته متوقفة على نتائجها. كنت معه عندما عرف باستيلاء البريطانيين على البصرة، وشاهدت وقع الخبر عليه. بكى وانهار وخبط رأسه في الحائط. لم يكن يتحدث في السياسة أمامي، ونادرًا ما علّق على

شأن عام؛ لذا كانت دهشتي عظيمة من ردّ فعله، خاصة أنه ظلَّ متأثرًا بعدها لفترة. أطلق لحيته، وأهمل مظهره، وراحت الهوة تتسع بينه وبين شخصيته كما كنت أعرفها. أمعن في الكتمان والغموض، أصبح عدوانيًّا لا يطيق أي نقد لفعل من أفعاله ويتلذذ بدموعي وألمي متهمًا إيايَ بلعب دور الضحية، ويبدأ يناديني بـ«الشهيدة»، ثم حين جاء خبر وفاة والده ثم تلاه الحريق بعد شهور، فاجأني بعزمه العودة للإقامة في المنيا.

مع كل تحفظاتي على تغيراته، حزنت لأنه أخرجني من حساباته للمستقبل. لم أعرف كيف أتصرف، ولا كيف أمنعه من المضي قدمًا في مخططاته. باندفاع أخبرته بأنني أنتظر طفله. كنا جالسيْن في مقهى لا أتذكر اسمه، يقع داخل مَمَرٍّ مسقوف بين شارعيْ محمود بسيوني وقصر النيل بوسط البلد، فانتفض واقفًا، وبدا على وشك قول شيء ما، لكنه فضَّل الصمت وغادرني كأنما يفرُّ من الطاعون. للحظات تفحصني رواد المقهى بفضول، ثم عادوا للعب الطاولة أو للثرثرة. جاهدت كي أخفي حرجي، وتظاهرتُ بالتفتيش في حقيبة يدي وأنا لا أفهم ماذا دعاني لأخترع هذه الكذبة، لكن وساوسي وسوس لي بعدم التراجع عنها.

غاب هشام ليومين، وفي الثالث هاتفني طالبًا أن نلتقي للبحث عن حلٍّ للمشكلة.

«أي مشكلة؟».

«بطّلي استعباط».

تمنيت لحظتها أن يغادر العالم بلا رجعة لا القاهرة وحدها، ومع هذا ضربت له موعدًا في مقهى «فينكس» بشارع عماد الدين بعد

ساعتين. تعمدت التأخر عليه، وحين وصلت كان في قمة توتره. أبلغني بأن ظروفه لا تسمح له بالارتباط بي ولا بغيري، وأن عليّ إجهاض الجنين، وسوف يمدني بالمال اللازم وبعنوان طبيب مختص بهذه الأشياء.

مشهد سينمائي بامتياز، هرسته أفلام الأبيض والأسود. لا ألوم إلّا نفسي؛ على نفسها جنت براقش.

لم أرد عليه في الحال، أنهيت قهوتي ببطء، ثم حملت حقيبتي متعمدة. لم أنظر خلفي لأرى وقع حركتي عليه. عزيتُ نفسي بأنني محظوظة لاكتشافي شخصيته الحقيقية، بدلًا من أن يظلّ في ذاكرتي بصورته المشرقة. ومع هذا، بمرور السنوات سرّبتْ ذاكرتي سلبياته واحتفظتْ فقط بإيجابياته. وفي المحصلة بقيَ فيها الشخص اللطيف الذي التقيته أول مرة، وانجذبت له تدريجيًّا، وبات اسمه مرادفًا لأيام انطلاقي وحريتي.

رأيته بعدها مرتين أو ربما مرة مؤكدة وأخرى متوهمة. في الأولى تقابلنا صدفة في شارع ٢٦ يوليو في إحدى زياراته للقاهرة. دعوته على قهوة في مقهى «الشمس». كانت جلسة مؤطرة بالحرج والتلعثم. وفي الثانية لمحته من بعيد، في ميدان التحرير، يوم تنحي مبارك عن السلطة. كانت سبع سنوات تقريبًا قد مرّت على انتقاله للمنيا، ولم أتوقع قط أن أراه في الميدان. لم أقترب منه، وكما بانَ لي فجأة، ابتلعه الجموع بلا مقدمات، فأقنعت نفسي أنّي توهمت رؤيته.

عقب ستين من ذلك اليوم، فوجئت بطلب صداقة منه على الفيسبوك. ردّ فعلي الأوليّ كان أن أحظره لمنعه من الاقتراب من

عالمي ولو افتراضيًّا، إلّا أن الفضول دفعني لقبول طلبه. كنت أتأمل صورته أحيانًا في محاولة لتتبع آثار الزمن على الوجه الذي عرفته جيدًا قبل سنوات. كل ما لاحظته، بخلاف شعيرات بيضاء قليلة غزت رأسه ونجاعيد خفيفة حول عينيه، أن نظرته اكتست بقسوة لم تكن على هذا القدر من الحدَّة في السابق وملامحه اكتسبت صرامة جديدة عليها.

كان معظم ما يكتبه غامضًا بالنسبة إليَّ، أشبه بتعاويذ وأحجيات لن يفهمها غيره، حتى حين كان يكتب في الشأن العام وتطورات الأحداث يخرج كلامه معقدًا لدرجة مضحكة. من وقت لآخر كان يعلِّق على صورة لي أو منشور أعدت نشره على صفحتي، فيلازمني الضيق بعدها لفترة لأن تعليقه عادة ما يكون حمَّال أوجه، وبسبب سوء ظنٍّ نمَّيتُه تجاهه، كنت أفسِّر كلماته على الأم نحوٍ ممكن.

مع الوقت لم أعد آبه بما يكتبه؛ لأنني انتبهت إلى أن معظمه موسوم بجنون الارتياب والاضطهاد والمبالغة في تقدير الذات. كلما ازداد الوضع العام سوءًا، أوغل هو في نأيه عن الواقع، واكتست منشوراته بمسحة صوفية مهلوِسة لم أعهدها فيه من قبل.

راح يزعم أن لديه حلًّا لكل مشكلات البلد، وأنه جهَّز ملفات توضح برنامجه لحلِّ أزمة المياه المتوقعة والتضخم ونقص موارد الطاقة، ويرغب فقط فيمن يساعده على الوصول للسيد الرئيس لعرضها عليه.

اعتدت أن أقول لنفسي وقتها: «دعي الخلق للخالق، وتمتعي فقط بالفرجة»، متغافلة عن أن الظروف الاقتصادية والسياسية

الطاحنة لم تترك للمتعة مكانًا في حياتنا، ثم تركت موقع المتفرج حين أخذ صورة طفلتي وجعلها صورة «بروفايله». كتبت له غاضبة طالبة منه تغيير الصورة، فبدأ يرسل لي رسائل سمجة يتهمني فيها بالتخلي عنه وهجره.

«لا يا شييخ!».

أخذ يلاحقني بجمل لزجة ومتكلفة، والأهم أنها تزوّر تفاصيل علاقتنا وتبرئه من أي ذنب؛ فلم أكلف نفسي عناء الردّ عليها، ثم لم أعد أجد بداخلي طاقة كافية لقراءتها من الأساس. كل صباح كانت تصلني رسالة جديدة منه، كأن امتناعي عن الرد ثم عن فتح الرسائل لا يعنيه ولا يخصه.

الغريب، أنني لم أشعر بالارتياح حين توقفت رسائله قبل أن يختفي هو من الفيسبوك. لم يوقف حسابه، فقط كفَّ عن تحديثه. فغمرني الفضول لمعرفة سبب غيابه. بدأ فضولي مثل بذرة صغيرة، سعيت لدفنها بداخلي، فنبتت منها شجرة تفرعت وملأت كياني كله؛ فدفعتني لمحاولة تخيُّل سيناريوهات ممكنة للمسار الذي سارت عليه حياته منذ افترقنا، غير أن خيالي اعتاد معاندتي مفضِّلًا إغراقي في أحلام يقظة متمحورة حول حياة أخرى بديلة ارتبطنا فيها معًا، وأسسنا أسرة صغيرة، قبل أن تغرق علاقتنا في الرتابة والضجر. مثَّل هذا عزاءً لي، فصحيح أنّي أعيش وحيدة مع طفلتي بعد رحيل أبيها، إلّا أن حياتي تخلو من الرتابة؛ فوقتي موزَّع بين رعاية صغيرتي وإدارة «بوتيك» الملابس الذي ورثته عن زوجي الراحل.

-٣-

كان هشام يعيش في عالم يخصُّه وحده. يتكلم بيقين عن أنه سوف يفعل هذا الشيء أو ذاك خلال سنوات معدودة، غير آبه إن كانت إمكاناته تؤهله لهذا أم لا! كانت علاقته معقدة بالمال، يتصرَّف أحيانًا كما لو أنه لا يكترث به ولا يشغله اكتنازه، وفي أحيان أخرى يبدو كما لو أن الثراء هدفه الأوحد والطريق الموصل إلى كل أحلامه.

كان مبذرًا حدَّ السَّفه حينًا، حريصًا حدَّ البخل حينًا آخر، لكن باستثناء ولعه بالبيوت الفخمة، لم يكن متعلقًا بالرفاهيات؛ إذ لطالما فضَّل ارتياد المقاهي والمطاعم الشعبية البسيطة حتى حين كان يأتيه مبلغ كبير من المال. المرة الوحيدة التي ذهبنا فيها إلى مطعم وبار «تافيرنا» بفندق النيل هيلتون، ظلَّ مرتبكًا متوترًا طوال جلستنا هناك. بالغ في طلب أطباق ومشروبات غالية الثمن وأغدق على النادل بقشيشًا مرتفعًا، ومع هذا راح يتلفت حوله بارتياب، قبل أن يسحبني للخارج، ولم يستعد طمأنينته إلّا حين وصلنا إلى ميدان طلعت حرب. في شوارع وسط البلد، اعتاد التحرك كمن يسير في بيته.

نجلس في مقهى ما على أحد الأرصفة أو في ممرٍّ ضيّق بين بنايتين، فينهمك في حلِّ الكلمات المتقاطعة. ينتهي منها في وقت قياسي، ويتذكر أنني معه، فيوجِّه لي سؤالًا أو جملة منبتة الصلة بأي

شيء. حينذاك، كنت أخمن أنه شارد عني في مكان أو ربما في زمان آخر، وتفوّه بأول ما خطر له لمجرد الإيحاء لي بأنه منتبه لوجودي بجواره، راغب في الحديث معي.

ما لم أفهمه قط، كانت هوايته في قراءة الإعلانات المبوبة يوميًا، مع التركيز على إعلانات العقارات الفخمة، وتدوين ما يلفت نظره منها في مفكرة خاصة، ثم الاتصال برقم الهاتف المرفق لمعرفة أكبر كمٍّ ممكن من المعلومات عن العقار المعروض للبيع. والذهاب لرؤيته إن أمكن متظاهرًا بقدرته على شرائه. في تلك الحالات، يكون في أقصى درجات تأنقه، يناقش التفاصيل بجدية، ويتجوّل في الشقة أو الفيلا متفحصًا الغرف والنوافذ ومداخل الضوء سائلًا عمّا يستوقفه، لدرجة أنني - في المرات القليلة التي رافقته فيها في مثل تلك المشاوير العبثية - كنت أظنّ فيه القدرة على شراء شيء بهذا القدر من الفخامة والغلو؛ لفرط إجادته دور المشتري الثري.

غضب هشام حين سألته: لماذا لا يجرّب حظه في التمثيل؟! قال إنه لا يمثل، فقط يُحبّ الإنصات إلى ما تبوح له به البيوت المصمّمة بذوق رفيع، وإنه يومًا ما سوف يمتلك أحدها.

كانت الأمور تجري بسلاسة حين يكون المسئول عن جولتنا في الشقة، السمسار لا المالك. فحتى لو شكّ السمسار في القدرة المالية للزبون المفترض، كان يواصل عمله بروتينية واحتراف، أما في حالة المُلّاك، فقد كان هشام يتلجلج أحيانًا حين يلمح نظرة تقييمية لشخصه ومظهره إن خانه لسانه بخطأ ما.

أسوأ تجاربي معه في هذا الصدد، حدثت حين ذهبنا لمعاينة شقة دوبلكس في أرض الجولف بمصر الجديدة. بحسب الإعلان،

بدت الشقة مبهرة وهائلة المساحة، لكن ما إن فتح صاحبها لنا الباب، حتى تغيَّر لونه وأخبرنا بأن الشقة قد بيعت بالفعل، مع أن هشامًا كان قد هاتفه لتأكيد الموعد قبلها بساعة. أغلق الرجل الباب بعدوانية في وجهنا، وطوال الطريق من مصر الجديدة إلى وسط البلد شعرت بأن هشامًا يغلي بجواري. لم يقل شيئًا، لكنني كنت متيقنة من أنه يشعر بإهانة بالغة. صمَّم يومها على أن نعود بالترام. جلسنا مدبرين ظهرنا لاتجاه سيره، ووجهنا نحو نقطة انطلاقنا. لم نتبادل كلمة واحدة، وتحاشيت النظر إليه. عاهدت نفسي على عدم الانسياق خلف نزواته المستقبلية، ومع هذا وجدت نفسي أنضمُّ له بعدها بأسبوعين في مشوار مماثل، لكن لمعاينة شقة فاخرة في منطقة المريوطية. بوصولنا هناك، اكتشفت أنها الدور العلوي لفيلا من دورين. كانت تلك أول مرة أرى فيها غرف النوم الملحق بكلٍّ منها حمَّام خاص. أحببت حمَّام الغرفة الرئيسة بورسلينه الوردي الداكن وحوض استحمامه الدائري. بدا لي أشبه بملعب. فهمت حينذاك ما يعنيه هشام بقوله إن البيوت تبوح له بأسرارها. أحسستُ أن هذه الشقة الراقية لديها ما تخبرني به. تمنيتها بيتًا لي، ولاحظ هشام هذا.

تلكأنا في تفحصها والفرجة عليها. وقفنا أمام كل نافذة من نوافذها، وتطلعنا من شرفتها الشاسعة إلى إطلالتها. قلت لهشام: إن الشجرة التي تطلُّ عليها غرفة النوم الكبرى اسمها بومباكس، وزهورها البرتقالية أقرب إلى لون الجزر. هزَّ رأسه موافقًا، وأشار إلى شجرة أخرى منها تواجه الشرفة بزهور متوهجة، ثم ضحك مليًّا من اسم الشجرة.

وقفنا نتأمل بستان مانجو في الجهة المقابلة، يجاوره جزء من حوش مدرسة عرفنا من الإعلان الذي سبق وقرأناه أنها المدرسة اليابانية بالقاهرة. ضغط هشام يدي برقة وسرح في المشهد الماثل أمامنا. كان الشخص الذي استقبلنا قد تركنا نتفرج على الشقة براحتنا، بعد أن أمدَّنا بالمعلومات الأساسية عنها، ونزل هو للدور الأرضي.

بينما نغادر هذه الشقة، أخبرني هشام بأنها سوف تضمُّنا معًا يومًا ما، وصدقته. بدت جملته أقرب إلى الوعد منها لأمنية. كانت أموره المادية قد بدأت في التحسُّن وقتها، وأذكر أنني سألته إن كان أستاذه قد رفع له راتبه، فأجاب بأنه لا يكاد يحصل على مليم من مساعدة الرجل، وأن مصدر دخله الأساسي يأتي من عمله في تجارة الكتب القديمة والطبعات النادرة.

«أومال بتشتغل معاه ليه؟».

هزَّ رأسه وابتسم بغموض دون أن يرد على تساؤلي.

مع أنني استمتعت بالفرجة معه على هذه الشقة، وابتهجت بقوله إنها سوف تجمعنا معًا، إلا أنني توقفت بعدها عن مرافقته في مثل هذه المشاوير. عدت يومها إلى بيت أهلي لأنظر إلى كل تفصيل فيه بعين السخط والانتقاد. بدا غير مرتب وقديمًا وبالغ الضيق. كما أنني خفت من الحلم بما يصعب أو حتى يستحيل تحقيقه.

وحسنًا فعلت، إذ بعد مدة قليلة بدأت تغيرات هشام نحوي. تضاعفت عدوانيته وانتقاداته لي، وسخريته مني. بدا مستحيًا داخل نفسه، يتصرَّف مثل قنفذ منغلق ومذعور ومستعد لإشهار أشواكه في وجهي لأقل هفوة مني.

«يلَّا، قدَّر ولطف، كتَّر خيره، على الأقل جهزني نفسيًّا للهجر».

أتذكر الآن أنه قبل أن يتوقف عن تحديث حسابه على الفيسبوك،

نشر صورًا تعرفت فيها على إطلالة فيلّا المريوطية. لستُ متأكدة طبعًا من أنها هي نفسها، بعد مرور هذه السنوات على زيارتي الوحيدة لها، لكن المنظر مطابق لذكرياتي عنه: شجرة بومباكس زهورها برتقالية، وأشجار مانجو تبين من بعيد، والأهم إطار النافذة بخشبه المشغول بذوق والعصيّ على النسيان.

لم أفهم ما الرسالة التي يريد هشام توصيلها من هذه الصور. كنت واثقة من أنها رسالة موجَّهة لي تحديدًا، وليس لأي شخص آخر. بعد يومين، نشر صورة «سيلفي» له مع امرأة شابّة بشعر أسود قصير وملامح صارمة. كانا واقفين في شرفة تشبه شرفة شقة المريوطية، وخلفهما أغصان البومباكس، تليها خلفية بستان المانجو. بدت المرأة سعيدة غير عابئة بتلاعب الهواء بخصلات شعرها المتطايرة يسارًا ويمينًا، أما هشام فكان تعبير وجهه قاتمًا، وفي عينيه نظرة الموت ووحشته.

خلال ساعات قليلة، حذف هشام الصورة، تاركًا لي التساؤل حول هُوية رفيقته فيها والفضول لمعرفة ماذا حدث له في السنوات التي تلت غيابه عن أفق حياتي، وحوَّله إلى هذه النسخة المضطربة من ذاته. أخافتني الكآبة المخيِّمة على محياه الشاحب. نبع خوفي من عبث المصائر. لو اطلع كل منا في شبابه على صورته كهلًا أو شيخًا لاستولى عليه الرعب.

أفكر في هذا، فأتطلع في مرآة غرفة نومي، علّني أعثر في وجهي المتعب على لمحة من أثر شبابي المنفلت من بين أصابعي.

امرأة في الكرخ.. بيت على أطراف البصرة

-١-

خلال زيارة إلى الكرخ لشأنٍ من شئوني، صادفت مُجية بعد مرور عقود على آخر مرة رأيتها فيها. كان ضحى ضبابيًا، وكنت منشغلًا بذكرى يزيد بن أبيه مفكرًا فيه منذ الصباح، عندما لمحت عجوزًا تبيع الإجّاص في السوق، متشحة بملابس فقيرة متقشفة، ولا يكاد يبين منها سوى اليدين والوجه.

شيء فيها كان مألوفًا، دققتُ في عينيها، وبرغم الغضون المحيطة بهما وبَهَتان نظرتهما، تعرّفت فيهما على عينيْ مجيبة. أخذتني رعشة؛ فالمرأة الهرمة أمامي بدت لي كمن قامت لتوها من بين الأموات.

لم تكد تنظر إليّ وأنا أخبرها بأنّي أريد شراء بضاعتها كلها؛ شرط أن تساعدني في حملها إلى داري. منحتها ما يربو على الثمن المطلوب فحملتْ معي الإجّاص، وهي تتعثر في مشيتها بفعل زمن لم يكن رءوفًا بها، وتبعتني إلى دار كنت قد اشتريتها خصيصًا للإقامة بها خلال زياراتي إلى بغداد.

أنزلتُ بضاعتها في حديقة البيت، ورفضتُ المُضيّ قدمًا أبعد من هذا. خاطبتها باسمها وسألتها عن أحوالها. لم تندهش ولم تدّعِ

عدم تذكرها إياي، فقط دققت في ثيابي الفخمة وفي الدار البادي عليها آيات الثراء، ولم تعلق.

أصررتُ عليها أن تدخل لاستراحة قصيرة، وأرسلتُ الخادم كي يحضر لها طعامًا وشرابًا من السوق. أخبرتها بأنّي لا أريد منها سوى معرفة ما جرى لها منذ غادرت البصرة حتى رؤيتي لها اليوم.

التهمتِ النيرباج والثريد وحلوى الفالوذَج التي أحضرها الخادم بنهم من لم يذق طعامًا منذ سنوات، وحكت لي ما مرَّت به. كان صوتها جافًا ثابتًا وفي عينيها نظرة لوم كأنني المتسبِّب في شقائها وسوء حظّها.

عرفتُ منها أنها ظلّت في بادية السماوة لسنوات، تعتني بعجوز مريضة وتعيش معها في خبائها، قبل أن تترك الخباء عقب وفاة العجوز، غير أنها -في النهاية- تزوَّجت من شخص يكبرها بأعوام حين ملّتِ الوحدة، ثم انتقلت معه من البادية إلى بغداد بعد أن شيّدها الخليفة المنصور بفترة قصيرة. كانت رحلتها إلى مدينة السلام أسهل من رحلة هروبها من البصرة؛ إذ ارتحلت هي وزوجها مع قافلة من أناس تعرفهم وعاشت بينهم طويلًا. كانوا في زيارة لبغداد للتجارة، أما هي فرغبت في الإقامة في الحاضرة الجديدة حتى يحين أجلها، وكانت قد أطلعت زوجها على يُسر حالها لإقناعه بالرحيل معها.

أخبرا من ارتحلا معهم أنهما سوف ينزلان عند أقارب لها حتى يكتريا بيتًا يخصهما. كانت واثقة من أن كل شيء سيكون على ما يرام ما دامت صُرَّتها تُزنِّر خاصرتها. في بغداد، وبعد أن فارقت القافلة، لم تعرف من أين تبدأ ولا أين يمكنها أن تقيم، لكن زوجها

أخذها إلى خان واكترى غرفة لهما، وأخبرها بأنه سيبحث عن دار صغيرة للإقامة بها مؤقتًا.

كانت قد قالت له إنها ورثت الجواهر والعملات الذهبية عن زوجها الأول، وحاولت إقناعه بشراء منزل فخم والعيش عيشة الرفاه، غير أنه صمّم على الاكتفاء بدار صغيرة حتى لا تنفد النقود سريعًا.

أعجبتْ برجاحة عقله حين أخبرها بأنه من الأفضل توجيه المال المتبقي نحو التجارة؛ كي ينمو بدلًا من أن يتناقص مع الوقت وكثرة الإنفاق.

فور استقرار مقامهما في الدار الجديدة، راح زوجها يتغيّب معظم اليوم، متذرعًا برغبته في التعرُّف على تجار المدينة وأسواقها؛ كي يقرّر أي تجارة أنسب لهما. وذات صباح استيقظت لتفاجأ باختفائه ومعه محتويات الصُّرَّة، باستثناء حفنة نقود تركها لها كي لا تموت جوعًا.

استعذتُ بالله من الخذلان بعد العصمة، وأنا أسمعها تُضيف أنها لم تعرف ماذا تفعل، ندمت لأنها استأمنته على مالها، مع أنها فعلت هذا مضطرة لإغرائه بمصاحبتها إلى بغداد، إذ لم تُرِد أن تكرِّر خطأها حين فرَّت من البصرة بلا سند ولا رفيق، وها هي قد صارت في بغداد، لكن المدينة العامرة بالناس والأسواق صارت مغلقة في وجهها، هي المرأة الوحيدة الضعيفة التي لم يتبقَّ لها من نقود سوى النزر اليسير.

بعد العويل والبكاء والابتهال أن يعود لها الرجل بالمال، فهمت أن رحلتها وآمالها انتهت هنا، حمدت الله على أن لها سقفًا يحميها من التشرُّد، وفكّرت في مهنة تقيها العوز، فلم تجد أمامها سوى

البيع في الأسواق. عاشت على خبز الخُشكار والزيت وبعض ما تجود به الأرض من أعشاب وجذور.

حيرني أمر صُرّة الجواهر والنقود الذهبية هذه، ولم أصدق مجيبة في البداية، عندما أقسمت إنها وجدتها في بيتها هي ويزيد في البصرة، وإنه كان يخبئها خلف صندوق الملابس؛ ظنًّا منه أنها غير قادرة على تحريك الصندوق الثقيل.

يزيد كما كنت أعرفه لا يكاد يهتمّ لأمر المال، ولا يمكن لكنوز الأرض أن تغريه أو تحرفه عن الصراط المستقيم، غير أن مسألة الجواهر هذه تُضفي -من جهة أخرى- بعض المنطق على قصة مجيبة والطريقة التي هربت بها.

بلغت دهشتي عنان السماء حين أخبرتني بأمر مَسٍّ مريض كتب عنه يزيد في رقوقه بشكل مبهم، واستنتجت هي أن الكنز يخصُّه.

استوضحتها أمر الرجل، فأكدت أنها لم تفهم شيئًا مما كُتِب عنه، بدا كل ما يخصه في كتابات يزيد التي كانت تقرؤها خلسة أقرب إلى هذيان شخص محموم يطلب المغفرة والصفح عن جُرم لا يوضِّحه.

لم نأتِ على ذكر ما كان بيننا، ولم نلمِّح له حتى من قريب ولا من بعيد، هذا بخلاف أني لاحظت تحاشيها التلفظ باسمي. في مثل هذه السنّ التي صرنا عليها، بدونا كأننا شخصان آخران، لا علاقة لهما بالماضي. الزمن حائط يفصلنا عمّا مضى، حاجز غير مرئي، لكنه أقوى الحواجز وأقساها، لا سبيل إلى اختراقه والعودة إلى ما سبق وعشناه إلّا خطفًا وعبر ذاكرة تتلاعب بنا وفق أهوائها.

منحتها ما يقيها ذلَّ السؤال، وسألت خادمي أن يصحبها إلى دارها. صرفتها غير راغب في رؤيتها مجددًا، مفكرًا في أن أعجب

من كل عجيب وأطرف من كل طريف، كيف يُقلِّب المولى الأفئدة، وكيف يغيِّر الزمن الأهواء. في الفترة التالية على اختفائها، قتلني الشوق إليها، ولم أتمنَّ شيئًا مثلما تمنيت رؤيتها مرة أخرى والاطمئنان على أنها لا تزال حيّة ترزق. كانت تمسك بأرماقي وحشاشات نفسي، ومع رؤيتي إياها، بعد مرور كل هذه الأحوال، رأيتُ قاصمة الظهر والموت الأحمر، وبصرتُ بملك الموت. أعاد وجهها المتغضن ذكرى انقضاضي على يزيد بن أبيه لقتله غيلة، ودفني له بيديَّ هاتين، وأبّد خياناتي له وغدري به.

حيرني أمر الشيخ الذي أشارت إليه مجية، وكرهت غروري الذي صوّر لي أن يزيد كان كتابًا مفتوحًا أمامي، أنا مالك النسّاخ؛ رفيقه ومفسِّر أحلامه وقاتله. لم أمكث في بغداد سوى يوم واحد، ولم أعد إليها بعد ذلك.

لم أرد أن تجمعني حاضرة واحدة بمجية، ومَن يُريد ما يُذكِّره بلذة ساعة ذهبت شهوتها وبقيت شقوتها؟! ومع هذا اعتدت إرسال خادمي من البصرة إلى بغداد، من آنٍ لآخر؛ كي يحمل لها نقودًا مني. آليت على نفسي أن أكفلها ما دمت حيًّا، واعتبرت هذا دينًا أخيرًا أسدده إلى يزيد بن أبيه، الملتصق بي منذ صرعته، والذي أكاد أرى طيفه كلما اعتكفت في خُصِّي القديم، ونظرت من نافذته إلى حيث الياسمينة.

في بعض الليالي، وقبل انبلاج الفجر بقليل، أكاد أراه يطوف على غير هدى، ينظر صوب بستان الكروم القريب - الذي اشتريته كي لا يعكر أحد صفو عزلتي أو رقدة يزيد الأخيرة- أو ينحني ليلتقط الياسمين المتساقط أسفل شجرته. يحدق فيه، وينثره فوق رأسه مراقبًا سقوطه.

أفرك عينيّ وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فيتلاشى الطيف من أمامي، لكن حضوره يتكثف في روحي. يروقني التفكير في أن حياة يزيد كلها خيال طيف ما استتمّ الزيارة حتى آذن بالرحيل.

عندما أبلغني خادمي يومًا بعد عودته من إحدى سفراته إلى بغداد أن محبية غادرت إلى دار البقاء، تمنيت أن تنتهي إقامتي على الأرض بدوري. لم أكن واثقًا إن كان الله قد غفر لي ذنبي أم لا، لكنني لم أعد راغبًا في المزيد، كنت كما قال الشاعر[1]:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش/ ثمانين حولًا لا أبالك يسأمِ

(1) زهير بن أبي سلمى.

-٢-

في زمنٍ كان الطاعون يحصد فيه الأرواح جمعًا من البصرة، وقفتُ أنا يزيد بن أبيه الخوّاص البصري أمام بيتٍ تتجلّى في واجهته آيات الثراء والعزّ، وحديقته غنّاء يتنافس فيها النخيل مع الأعناب والأُترُجّ مع الإجّاص والآس مع الريحان والياسمين والورد الجوري والنرجس.

بدت لي جنة وارفة في جحيم مدينتي المبتلية بطاعونٍ لا نجاة منه. جئت عن زيارة واصل بن عطاء المريض والمعزول في بيته، ومع هذا لم أتردد في التسلل، في جنح الليل، إلى حرم هذا البيت المجهول الذي لم أفهم كيف لم آته إليه قبلًا، مع أنّي أحفظ كل شبر في مدينتي كما يحفظ المرء خطوط كفه!

لم يتناهَ إليّ أي صوت من الداخل، وشجعني هذا على مواصلة ما بدأته. كانت روائح الزهور والنباتات في الحديقة تندمج معًا في هدأة الليل لتلفّ كياني كله في غيمة عطرية تحجب شبح الموت والمرض بعيدًا عني، رنوتُ إلى السماء فطالعني البدر، بدا كأنما يحدق فيّ ويشهد عليّ. تجاهلته وخطوتُ على أطراف أصابعي ضامًّا ثوبي على جسدي كي لا يُصدر حفيفًا ما.

في البدء جِلتُ البيت خاليًا بالفعل. بدا كأن أهليه قد غادروه على عجل، ملتقطين معهم أقلّ القليل من المتاع؛ ما خفَّ حمله وغلا ثمنه، كما يُقال. الطنافس كانت موزَّعة هنا وهناك بإهمال وأقمشة حريرية ملقاة على الأرض.

جرأني هذا على النظر في الغرف. دخلتها واحدة تلو الأخرى. كانت خالية، ثم تناهى إليَّ أنين من غرفة في عمق الدار. مرتبكًا قصدتها، وأنا أبحث في ذهني عن حجة أتذرع بها للإجابة عن سؤال: ما الذي أفعله في بيت ليس لي ولم أُدعَ إليه؟!

قرَّرتُ قول إن صوت الأنين دفعني للدخول لمساعدة صاحبه واستجلاء سبب أنينه. ذريعة واهية في زمن الموت العمومي هذا، لكن عقلي لم يسعفني بسواها.

في الغرفة كان عجوز يرقد على التخت متأوِّهًا، ينازع للقبض على آخر ملامح الحياة بيد، فيما يده الأخرى قابضة على صندوق صغير مزخرف، لم أدرِ ماذا دهاني حين تأملته! تنازعتني أهواء شتى.

كان غافلًا عني، عيناه مفتوحتان ومع هذا تبدوان كأنما ليس في مستطاعهما الرؤية. على جبينه قماشة مبللة، وشفتاه تلهجان بما لا يمكنني فهمه.

رأيت في الرجل سحنة الموت العكرة، وضعف بني آدم وعجزهم عن تغيير ما كُتِب لهم. وسوس لي شيطاني بأن أكون سيد مصيري وألّا أنتظر يد القدر العمياء كي تعبث بي، أن أختار ما عليَّ فعله، وأي الطرق عليَّ أن أسلك.

أخافتني أفكاري. جلستُ على طرف التخت، أراقب هذا الشيخ في صراعه الأخير من أجل الحياة، عازمًا على التدخل عند الحاجة.

لا أعرف كم مضى من الوقت بين دخولي مخدعه وبين قبضي على القماشة التي كان لا يزال فيها أثر من رطوبة على جبهته.

بثبات، وضعتها فوق فمه وأنفه، ومنعت الهواء الأخير عنه. ارتعش الجسد بحثًا عن شهقات الحياة، ومع هذا لم تلنْ قبضتي. حتى بعد أن غادرته الروح وتهاوت يده القابضة على الصندوق الصغير بعيدًا عنه، ظللت ضاغطًا القماشة على وجهه.

كنت أرتعش، ورغبت في أن أصرخ صراخًا متواصلًا، لكنني عجزت عن مجرد الهمس. لم أعرف ماذا أفعل بنفسي أو بمسنٍّ استحال جثة هامدة. قردتُ القماشة، وخبأتُ الصندوق بداخلها، وصررتها عليه، ومن دون تفكير حملته معي.

أمام البيت نظرتُ إلى السماء، فلم أجد القمر. كان محتجبًا حيث لا أعلم، فتكاثفتِ الظلمة. خطر لي أنني، بما أقدمتُ على فعله، أخفيتُ الجِرم السماوي وجلبتُ العتمة إلى العالم؛ عالمي أنا على الأقل.

اشتقتُ إلى أهازيج الفتيات في زقاقنا وأنا صغير حين كان يغيب القمر. كن يغنين له كي يعود، فيما الأمهات يتضرعن إلى الله من أجل أن ينتهي الخسوف. أما أنا، فشعرتُ بأن الخسوف يناسبني تمامًا. لم أرد لضوء القمر أن يكشفني لأي عين، برغم يقيني أن أحدًا لن يهتمّ بي أو بضحيتي في زمن الهلاك الجماعي هذا، حتى لو كانوا شهودًا على قتلي إياه.

لم أقلق وأنا أدخل بيتي؛ فمجيبة كانت تعود أمها المريضة وسوف تظلّ عندها ليومين. داهمتني فكرة أن المُسنّ ربما كان مريضًا بالطاعون، وأنني بدخولي بيته وملامسته قد أخذتُ مرضه

وليس روحه فقط، فلم أكترث. على الأقلّ ساكون قد اخترت مصيري ودربي بوعي مني، لا وقعت فريسة ليد القدر المزعومة.

قضيتُ تلك الليلة محمومًا، لكنني لم أشعر بأي مرض في الأيام التالية. كنت فقط مرهقًا كأنما استللتُ روحي أنا من جسدي، لا روح الشيخ المريض. فتحت الصندوق في النهاية لأجد فيه جواهر ودنانير ذهبية. حينذاك فقط كرهت نفسي. لم أكن قط طالب مال، ولا راكضًا خلفه. أنا راغب في العلم، راغب عن المال والسلطان. لطالما استعذتُ بالعلي القدير من فتنة الثناء، ومن فتنة النساء، ومن فتنة الرياء، وابتهلت إليه كي لا أكون مِمّن لا يعرفون إلّا ظاهر الخير، بل من العارفين بغوامض التدبير والمستتر من الأمور.

مغالبًا حسرتي، صررتُ الجواهر والدنانير في القماشة، وأخفيت الصُّرّة في شقٍّ بالحائط خلف صندوق ثيابنا حتى أقرر ماذا سوف أفعل بها، وداريتُ الصندوق الصغير في عباءتي عازمًا على التخلص منه.

فكرتُ في البداية في رميه في الأهوار، ثم قرّرت أن دفنه هو الحلّ المثالي. عرفتُ بالمثل أين سأدفنه. تركته في دكاني، ومررت بمالك النسّاخ في السوق، أخبرني بأنه منشغل حتى الزوال، فعدت للدكان وحملت الصندوق الصغير مخفيًا في عباءتي وتوجهتُ إلى خُصّ القصب الخاص بالنسّاخ. في المنطقة أمامه، وعلى مقربة من الكرمة المجاورة، حفرتُ الأرض، ودفنتُ الصندوق، ثم أهلتُ التراب عليه وسويتُ الموضع بقدميّ، ونثرتُ فوقه بعض الحشائش وأوراق الشجر الجافة بحيث لم يعد يختلف عن محيطه.

عدتُ إلى البيت لا إلى السوق، ورحتُ في نوم يشبه الإغماء، وعلى غير عادتي، خاصمتني الأحلام والرؤى. انقطعتْ عني بعد جريمتي. ومع أنها كانت تثقل عليّ خاصة حين تتحقق، أثقل عليّ

غيابها أضعافًا مضاعفة. كان علامة على انحرافي عن الصراط المستقيم. لم تبدُ محاججتي السرية بأنني ساعدت الشيخ الهرم ورحمته من عذابه مقنعة في نظري. كانت شكوكي ولحظة كفري تتجلى أمامي، فتمنع عني رؤية ما عداها.

حين علمتُ لاحقًا أن أبا حذيفة الغزّال قد مات في الليلة نفسها، وربما في الوقت ذاته الذي كنت أخنق فيه المُسِنّ المريض، شعرتُ بأنني مسئول أيضًا عن موت شيخي وإمامي.

تذكرتُ حلمي القديم الذي فسّره شيخ الدين الحسن البصري بذهاب علماء البصرة، وشعرت بأنه لا يتوقف عند هذا التفسير. خُيّل إليّ أن الحلم، بشكل ما، ذو علاقة بما جرى في البيت الواقع على أطراف البصرة، وبالياسمين في حديقته، وبرائحته المختلطة بعبير غيره من زهور. بدت لي هذه الرائحة فجأة رائحة الموت ورسوله. صدقت يا مولاي الحسن: الياسمين أوله يأس.

انقشعت غيمة الطاعون عن سماء بصرتي، غير أن غيمة جريمتي لم تنقشع عن سمائي. ظلت الجواهر والدنانير الذهبية في حوزتي لتذكرني بما اقترفت يداي. فكرتُ في التبرُّع بها للفقراء والمعوزين، غير أني خفتُ من أسئلة وشكوك بخصوص كيفية حصولي – أنا الخوّاص الفقير الناسك – على أحجار كريمة ودنانير ذهبية.

مع انزياح وباء الموت، عادت الحياة إلى طبيعتها، ولم يعد من السهل الإفلات بهكذا جُرم، ومع هذا كان خوفي من المولى ومن عذابات الجحيم هو ما يقضُّ مضجعي. تُبتُ إلى ربِّ العالمين توبة نصوحًا، واجتهدت في التعبُّد والذِّكر. قلت: سأعتبر عودة مناماتي إلى سابق عهدها علامة على تقبُّلِ الله عزَّ وجلَّ توبتي، غير أن هذه العلامة لم تُنِرْ عالمي بعدُ.

كان مالك بن عُدي النسّاخ في الأثناء يسألني عن مناماتي مندهشًا من توقفي عن حكيها له، كما اعتدتُ أن أفعل منتظرًا تأويلاته في لهفة. لم أرده أن يشكّ في شيء، فرحتُ أقصُّ عليه أحلامًا ملفقة. بعضها كان تحويرًا لأحلام قديمة، لم أحكها له في السابق؛ لتيقني من أنها مجرد أضغاث أحلام لا علاقة لها بالرؤى من قريب ولا من بعيد، وبعضها كان مؤلفًا من شذرات مما مررت به في يومي ممزوجًا ببعض شطحات خيالي.

لدهشتي، انطلت الحيلة على النسّاخ برغم فراسته. تعامل مع تلفيقاتي بجديته المعتادة، واجتهد في فك غوامضها.

مع الوقت، بدأتُ ألاحظ عليه تغيرات غير مألوفة، كان يتحاشى النظر إليّ ويشرد عني وهو يحدثني. يحرص على ملاصقتي والبقاء معي طوال الوقت حينًا، ويأتي لسؤالي عن خططي لليوم، ثم يختفي لفترة دون أن أعرف له مكانًا حينًا آخر.

في مرات كنت ألمح العذاب والشقاء في عينيه، وفي أخرى كنت أشعر به يتصرّف كما لو كان قد ذاق آيات النعيم لتوه. كنتُ أتساءل، بيني وبين نفسي، عمّا قد يراه في عينيّ إذا حدث ودقّق فيهما! هل سيكون بمقدوره سبر غور سري الدفين، وهو مَن هو في استبيان الغامض من العيوب والدقيق من المحاسن؟!

حمدت المولى عزَّ وجلَّ مرارًا على تحاشي النسّاخ – مؤخرًا– النظر في عينيّ، فيما يحدثني، مثلما اعتاد أن يفعل في الأيام الخوالي.

لطالما آمنت بقدرته على سبر أغوار الآخرين والاطلاع على المستغلق من أسرارهم وخفاياهم، ومع هذا كنت أطمئن نفسي بأن الله تعالى لن يكشف له ستري، ثم أعود لتذكّر أن لكل شيء إبّانًا، وإبّان افتضاح أمري آتٍ لا محالة.

خلف ضباب الجسد

-١-

في رأسي استيقظت الذكريات. أفاقت من سُباتها ولم يعد في الإمكان كبحها. أقول إنها ذكرياتي أنا؛ هشام خطّاب، في طور وجود سابق، وتخبرني هي أنها ذكريات يزيد بن أبيه الخوّاص ولا تخصني في شيء، وأن مصادفة عمياء ما جعل مني متلقيها بدلًا من أي شخص آخر.

ذكرياتي أنا، أم هو؟ لا يهم. أقصد أن الأمر لم يعد مهمًا الآن. كان حيويًا في السابق، ثم اتضح لي أن فحوى الذكريات نفسها هو الأكثر أهمية، بغضّ النظر عن إن كانت تنتمي لي أم لغيري.

نعم، ثمة أشياء مهمة في حدّ ذاتها بغضّ النظر عن أي شيء آخر.

عبر ذكرياته المتدفقة في رأسي، أو ذكرياتي المستعادة من زمن عتيق إن شئتم، عرفتُ بجريمة القتل، وبواقعة الخيانة. وعرفتُ بأحلام متكررة حوّلت حياة يزيد بن أبيه إلى جحيم. مع الوقت لم يعد بوسعه التفرقة بين أحلامه وواقعه. صار أسيرًا في قبضة مفسّر أحلامه؛ مالك بن عُدي النسّاخ. في صباه كان يلجأ إلى إمامه وشيخه؛ الحسن البصري لتفسير رؤاه واستمرّ في هذا حتى بعد اعتناقه مذهب واصل بن عطاء الخاصّ بنفي القدر، وبوفاة البصري تكاثرت عليه الأحلام الأشبه بكوابيس، ولم يكن هناك مفرٌّ من البحث عن مفسّر

آخر. كان يعرف بأن البصري لا بديل ولا منافس له في العلم، ومع هذا سقط في أحابيل النسّاخ دون مقاومة. ليس عن حماقة ولا غفلة من جانبه؛ لكن بسبب حصافة الرجل ومكره. بدا له عالمًا بسريرته قبل حتى أن يقصّ عليه أحلامه. كان متمكنًا من اللغة، قادرًا على التلاعب بالكلمات والعبث بها، وصاحبي القديم كان ضعيفًا أمام سادة اللغة.

تتلمذ مالك النسّاخ في صباه على يد الحسن البصري، رافق المعتزلة لبعض الوقت. مثل يزيد، أعلن اتّباعه مذهب واصل بن عطاء الغزّال ومنهجه الخاصّ بالمنزلة بين المنزلتين ونفي القدر، لكنه تمرّد عليه لاحقًا. قيل إنه أصبح مرجئًا، وقيل إنه عاد للمندائية أو المانوية في قول آخر؛ معتقده الأصلي.

لا أحد بإمكانه الجزم بحقيقة ما حدث له. كل هذه المزاعم انتشرت لاحقًا، بعد أن هامَ على وجهه قاطعًا أزقة البصرة وطرقاتها، جالسًا بالساعات في مربدها أو ناسيًا نفسه بينما يحدق في قوارب تعبر الأهوار محملة بأناس وبضائع. كان يغيب أحيانًا عن العيون بالأيام، لا يعرف أحد أين اختفى ولا يهتمّ أحد إن ظهر مجددًا. في تلك الأثناء كان يجلس كالمأخوذ بجوار ياسمينة تكاد تختفي بين بساتين الكروم والنخيل؛ ياسمينة اعتادت لفظ زهورها أكثر من المعدل الشائع بين مثيلاتها. يرنو إلى الزهور المتساقطة على الأرض فوق الحشائش ولا يتكلم ولا يتحرك. كان كمن ينتظر أن يحمل له الياسمين الميت رسالة من باطن الأرض، لكن الباطن المعتمّ راقه دفن رسائله في جوفه.

في البداية لم يكن النسّاخ يحظى سوى بكل تقدير، ثم استحال التقدير شفقة، واستحالت الشفقة مع الوقت هُزْءًا به وضيقًا من

غرابة أطواره وأفعاله، حتى اختفى سنتين وعاد ثريًا يُظهِر آيات الورع والتقوى ويكثر من العطايا والهبات؛ فتناسى الناس ما شهدوا عليه قبلًا من غرابة أطواره.

تسطع هذه التفاصيل في رأسي فتتوارى خلفها كثير من ذكريات حياتي القريبة كهشام خطاب، باستثناء ما يرتبط من هذه الذكريات بذلك العالم الموغل في القدم، مثل كل ما يخصّ تلك الفتاة التي شعرتُ - حين رأيتها لأول مرة - أنها خارجة لتوها من لوحة لمارك شاجال. رأيتها تشبه بيلّا روزينفيلد، مع أنني لم أتمكن من وضع يدي على مكمن الشبه. كنت مفتونًا في تلك الفترة ببيلّا هذه، شيء ما في روح الفتاة وإطلالتها ذكرني بها كما تبدى في نسختها المرسومة، لكن كم كانت خيبة أملي كبيرة حين بدأت تلك الحمقاء تتشبه ببيلّا في المظهر.

في البداية صبغت شعرها بالأسود وقصته على هيئة «كاريه» قصير، تمامًا مثل بيلّا في اللوحة التي أهديتها إياها. كان يمكنني تقبل هذا الأمر، لكن ما فاقمه بحيث فاق قدرتي على الاحتمال، أنها راحت ترتدي ثيابًا سخيفة لدرجة مضحكة رغبة منها، ربما، في التطابق مع زوجة شاجال وملهمته. تخيلوا شابّة تعيش في بدايات القرن الحادي والعشرين، فيما ترتدي ملابس تعود إلى الربع الأول من القرن العشرين!

في تلك الفترة، لاحظت أيضًا توقها إلى التماهي مع الآخرين والعيش خارج ذاتها. كانت تحضر عروض «مركز الثقافة السينمائية» في شارع شريف أسبوعيًا، وكانت مولعة -على وجه الخصوص- بالسينما الفرنسية. نخرج من فيلم ما ونتجه إلى مقهى «زهرة البستان» أو «الحرية» أو «سوق الحميدية»، ونستغرق في

الحديث، فأنتبه إلى أنها، من الفيلم الذي شاهدناه لتونا، حملت معها تعبيرات وجه وإيماءات كاترين دينيف أو جين سيبرج أو آنا كارينا أو جين بيركين.

ثم لاحظت أن الأمر لا يتوقف عند الممثلات، بل كثيرًا ما كانت تحاكي حركات وإيماءات شخص التقيناه لتونا: صديقة لها صادفتنا في الشارع، نادلة في مقهى تجلس فيه، بائعة في محل. غير أن ما لم أقدر على احتماله كان انتباهي إلى أنها تكرّر بعض تعبيرات وجهي و«لزماتي» في الكلام، كأنني أمام مرآة تعكس صورتي بفارق ثوانٍ أو ببغاء يحلو له أن يكون صداي.

اعتادت فعل هذا برهافة، وربما بلا وعي منها بما تقوم به، مجرد النظر بطريقة معينة، رفع حاجب، حكّ الأنف بالسبابة، أو اللعب في خصلات شعرها، أو إمالة رأسها بزاوية معينة كما تفعل هذه الممثلة أو تلك، أو إغماض العينين عند الضحك أو دعك الذقن علامة على التوتر في حالتي. لحسن حظي، أو سوئه، كانت عيناي خبيرتين بأرهف الإشارات وأخفتها. لا أنطق بهذا عن تفاخر، فالأمر مثّل لي نقمة لا نعمة.

التقيتها مرّة مصادفة، وكان هذا آخر لقاء بيننا. كانت قد عادت لارتداء ملابسها هي لا تلك التي تعتقد أنها قريبة من نمط أزياء بيلّا روزينفيلد، وعلى الأرجح لم تكن تحاكي حركات أحد. لكن ما أدراني! ربما كانت تستنسخ إيماءات شخصية لا أعرفها. راحت تتحدث بآلية، وخمنتُ أنها خائبة الأمل لأنني لم أبلغها بقدومي إلى القاهرة يومذاك. لم أبرّر لها الأمر ولو حتى من باب تطييب الخاطر، قلتُ لنفسي: إنني لستُ مدينًا لها ولا لأي شخص آخر

بتبرير ولا توضيح. ومع هذا شعرتُ في قرارة نفسي بأنني مدين لها هي تحديدًا بالعرفان؛ فهي ولا أحد غيرها، مَن دلني على أول الخيط دون دراية منها. فمنذ التقطتُ من بين يديها نسختها من «تفسير الأحلام الكبير» المنسوب للإمام محمد بن سيرين، بدأتْ حياتي في التغيُّر، وصرت أكثر اتصالاً بالماضي.

رأيتُ عنوان الكتاب واسم ابن سيرين على غلافه، فلم يمرَّا بسلام كما كان الأمر فيما سبق. رنَّ جرس الذكرى في رأسي، خافتًا وجلًا في البداية، قبل أن يتحوَّل لاحقًا إلى قرع مدوٍّ ومستمرٍّ.

فتحتُ المجلد، تصفحته على عجل فصادفني اسم إمام الدين الحسن البصري. واصلتُ التصفح، فوقع بصري على تلك الرؤية المألوفة لي من قديم؛ حيث ملائكة تقطف الياسمين من بساتين البصرة. ياسمين سكن أحلامي مجددًا بعدها، ودلني رويدًا على ذاتي وأعماقي. لا شيء يحدث في هذا العالم عبثًا. كل شيء يقع من أجل شيء آخر. كل حدث - مهما كان صغيرًا- مفتاح لفتح صندوق بعينه، وما علينا سوى الانتباه وإدراك أي صندوق يناسبه هذا المفتاح.

وحتى لو ارتبكنا، وأدخلنا المفاتيح الخطأ، ولم ينفتح ولو صندوقًا أو بابًا واحدًا في وجوهنا، فعلينا التيقن من أن هذا ليس عبثًا، بل يحدث لغاية محددة. غاية مهمة حتى لو لم تُحط أفهامنا المحدودة بأبعادها.

عن نفسي، وجدتُ مفتاحي الأهم - لن أقول مفاتيحي كلها- وساعدني على فتح صندوق الماضي المدفون أسفل ياسمينة على طرف كرمة عنب تقع في مدينة اللغة والأئمة والبساتين.

بينما أقف أمام النافذة متأمِّلًا شجرة البومباكس بزهورها البرتقالية، رحت أستعيد ملامح فتاة رأيت فيها صورة بيلّا روزينفيلد. فتاة كانت مرآة عاكسة لتعبيرات وإيماءات مَن أمامها. وتساءلتُ بعد فوات الأوان: لماذا لم أتسامح مع هذه الصفة فيها؟!

ثم أعود وأتذكر أنّي نادرًا ما تسامحت مع نواقص الآخرين أو أخطائهم في حقي. قد أنسى أو أتناسى إلى حين، لكنني لا أتسامح أبدًا. التسامح مغالى في تقديره، هو موات وغفلة. لو تسامحتْ روح يزيد بن أبيه المتعبة مع ما حدث له، لما كنت أنا الآن مشغولًا به، راغبًا في الثأر له، ويقتلني عدم معرفتي صوبَ مَنْ عليَّ توجيه رغبتي في الانتقام.

ربما بسبب كل هذا، لم تستمرّ أي علاقة عاطفية لي في السابق سوى لأشهر قليلة؛ بعضها انتهى قبل حتى أن يبدأ. كنت أشعر أحيانًا بأني أبحث بعدسة مكبرة عن العيوب في أي فتاة أمامي، وأبالغ في تنفير نفسي من هذه أو تلك، لكن سرعان ما كنت أزيح هذا الشعور بعيدًا، وأحاول إقناع نفسي بأن بعض الأشخاص خُلِقوا للعيش وحدهم بلا رفيق ولا نديم، وُلِدوا مشحونين بغضب هائل ونقمة لا يعرفون سبيلًا لتصريفها، وإن حدث وأجبرتهم الحياة على اتخاذ رفيق يستندون إليه في أوقات ضعفهم، يتعاملوا معه - في أعماقهم - كأنه هو والعدم سواء.

الآن أتساءل إن كان مالك بن عدي النسّاخ وغدره بيزيد بن أبيه سبب مأزقي هذا، وأتساءل إن كانت مجيبة - امرأة لم يسبق لي أن ألتقيها أو أعرفها في حياتي الحالية - سبب نفوري هذا من

بنات جنسها. هل كانت «رفسة من فرس، تركت في جبيني شجًّا، وعلّمت القلب أن يحترس»[1] خاصة بي؟!

في بدايات معرفتي بميرفت، أو بيلّا روزينفيلد العصر والأوان، كنت أتصرَّف كعاشق غِرّ. أسهر مشغولًا بها مفكِّرًا فيها. تخايلني صورتها فيما آكل أو أقرأ أو أتناقش مع زنديقي الحبيب، فترتبك أفكاري.

أحببت الأفلام الفرنسية من أجلها، قرأت عن جودار وتروفو وغيرهما، وأحببت جين بيركين وآنا كارينا، وجين مورو والأخريات محبة في ميرفت لا أكثر ولا أقلّ. لكنّ ثمة شيئًا ما كان يدفعني للتوتر وعدم الاطمئنان. في الواقع كانت تبدي لي رقيقة هادئة، لكنها في أحلامي تجلّت بصورة أخرى. لطالما شعرتُ بعدم الأمان في الأحلام التي جمعتني بها.

استغللتُ ولعها بكتاب «تفسير الأحلام الكبير» المنسوب للإمام محمد بن سيرين، ورحتُ أسألها عن تفسير مناماتي. وفي اللقاء التالي، كانت تحضر الكتاب معها، وتريني تأويل ابن سيرين للرموز التي تراءت لي.

أتذكر حلمًا بعينه، كنت قد رأيت فيه نفسي في سفينة وسط البحر، ثم فررت منها إلى جبلٍ هائل الحجم. وأخرجت هي التفسير من مجلد ابن سيرين ومفاده العطب والهلاك؛ لأن رؤيايَ تُحيل إلى قصة ابن نوح حين رفض ركوب فُلك أبيه ظنًّا منه أن الجبل سوف يعصمه من الماء.

(1) أمل دنقل.. قصيدة «الجنوبي».

كانت منقبضة عابسة وهي تشرح لي الأمر، فخففتُ عنها بالسخرية من نفسي وأحلامي. لم أقلْ لها إنها كانت تتراءى لي فوق الجبل؛ لذا هجرتُ السفينة كي ألحق بها.

في تلك الفترة لم تكن قد أوغلتْ بعدُ في استنساخ إيماءات الأخريات. اعتدتُ استعارة كتاب ابن سيرين منها، مع أنني كنت أقتني نسخة قديمة منه. كل مرة كنت أقرأ فيها نسختها، كان قلبي يرتعش في صدري. أشعر بإثارة ممزوجة بالوجل والترقب، يليها صداع لا أفهم سببه. المرة تلو الأخرى كنت أعود إلى ذاك الحلم الذي فسّره الإمام الحسن البصري بذهاب علماء البصرة. كان يوقظ شيئًا كامنًا في أعماقي، ويشعرني بانتمائه إليّ أو انتمائي إليه واغترابي عن كل ما يُحيط بي في حياتي الحالية.

غير أن الصورة لم تتضح لي تمام الاتضاح سوى حين فاجأني الزنديق يومًا بمؤلَّف نادر كان يحتفظ به. لم يفعل هذا طبعًا، إلّا بعد أن وضع المصحف على الطاولة بيننا، وطلب مني القسم على ألّا أفشي سرّ هذا المؤلَّف إلّا حين يأذن لي. أخبرني حينها بأنه ينوي تحقيقه ونشره لاحقًا، وأن أهميته الكبرى تكمن في أنه يروي سيرة حياة بشر عاديين وشئونهم الصغيرة في عصر غلبت على مؤلفاته العناية بتراجم كبار القوم. لم يخبرني بأنّي سوف أجد الكثير عن يزيد بن أبيه، الذي كنت قد سألته عنه من قبل، في الكتاب. تركني أكتشف هذا بنفسي. لم أستوضحه لماذا لم يُرِحني بإجابة تروي عطشي للمعرفة حين سألته أول مرة. صرت أعرفه بدرجة لا أحتاج معها إلى طرح أسئلة من هذا النوع عليه.

عرفت منه أن المؤلف مالك بن عدي النسّاخ مغمور، ولا ذكر له في أيٍّ من المدوَّنات الخاصة بهذا العصر، لكن ما خطّه في كتابه هذا يدلّ على أنه عاصر الإمام الحسن البصري وابن سيرين وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الباب، وشهد نشأة مدرسة المعتزلة في البصرة وعمَّر نحو مائة عام.

لم يسمح لي الزنديق باستعارة الكتاب، لكنه أتاح لي قراءته في غرفة الصالون المنفصلة في شقته. كان يتركني فيها بالساعات، ويُغلق الباب خلفه. من وقت لآخر يُحضر لي طبق فاكهة أو فنجان قهوة أو كوب شاي ويغادر على الفور إلى شئونه. في مرة من المرات اكتشفت أن الباب الذي يُفتح على الدَّرَج مغلقٌ عنيٌّ من الخارج، لم يدهشني هذا، فعلى الرغم من ثقته بي، لم يكن في وسعه التخلي تمامًا عن شكوكه وحذره، وإلا لما كان الشخص الذي صرت أعرفه تمام المعرفة.

كنت أحفظ مقاطع بعينها من الكتاب عن ظهر قلب، ثم إنني استنسخت مقاطع أخرى، أقصد تلك المقاطع التي تحدَّث فيها النسّاخ أو مفسِّر الأحلام، كما كان يُطلَق عليه، عن رفيقه يزيد بن أبيه ومراحل علاقته به، ثم علاقة النسّاخ بمجيبة؛ زوجة يزيد.

كم كانت حسرتي عظيمة حين احترقت شقة أستاذي بكل ما فيها من كتب وكنوز، واحترق هو وزوجته وابنته معها. حزنت عليهم بطبيعة الحال، غير أن حزني الأكبر كان على الكتب والمجلدات النادرة التي استحالت ترابًا وبالأخصّ ذاك المؤلَّف الذي فتح لي بابًا ظلّ مغلقًا لقرون على أسراره. تعرفت على نفسي في يزيد، لم يتوافق كلّ ما ذكره النسّاخ في كتابه الاعترافي مع ما تذكرته لاحقًا عن الأحداث نفسها، إلا أنه –على الأقل– كان المحفّز الذي

ساعدني على قنص تلك الذاكرة القديمة وامتلاكها، ثم إنه أتاح لي معرفة جانب ممّا أعقب الغدر بيزيد.

التحقيقات الخاصة باحتراق شقة أستاذي، أرجعت الحريق إلى ماس كهربائي. تجاهل المحققون ما ردّده بعض الجيران عن صرخات استغاثة –مصدرها الشقة– سبقت الحريق، وتَجَاهُل المطافي بلاغات الجيران المتتالية، على الرغم من الوعد – مع كل بلاغ – بقدوم عربة مطافئ فورًا إلى العنوان المذكور.

في الأيام التالية على الحريق، نظمت مقاطع كنت قد استنسختها وأضفت إليها أجزاء أخرى أحفظها غيبًا، وأكملت ببعض ما أتذكره من أحداث واردة في الكتاب، محاولًا استعادة السياق الكلي لقصة يزيد والنساخ ومجيبة كما رواها النساخ بنفسه وضمّنها بعض مدونات الخوّاص.

كنت أريدها لنفسي، مدركًا أنها سوف تساعدني، طال الوقت أم قصر، على تذكُّر كل ما غاب عني من تفاصيل تلك الحياة القديمة. لم أفكر في نشرها، أو الإشارة من قريب أو من بعيد لكتاب مالك النساخ هذا، ليس لأنني وعدتُ أستاذي بعدم إفشاء سره إلّا إن أذنَ لي، فلا أهمية لمثل هذه الوعود حين يتعلق الأمر بالمعرفة؛ إنما بالأساس لأن أحدًا لن يصدقني، وإن حدث وصدقني البعض، فقد لا يهتمون بما دوّنه شخص مجهول لا سبيل لتحقيق مؤلّفه بعد ضياع النسخة الوحيدة المتوفرة منه.

من نافذة ليست نافذتي، ولا يمكن لها أن تكون، أنظر إلى زهور برتقالية متوهجة وأفكر في النار؛ في قوتها وعنفوانها، فأدرك أنها يسعها التهام أي شيء تقريبًا، لكن ثمة أشياء لا يمكن للنار التهامها؛ أشياء تظلّ معنا، وتنتهي فقط إن احترقنا نحن.

لا يسع النار أن تفعل شيئًا حيال الذاكرة مثلًا. تخبو الذاكرة فقط من داخلها، تفتات على ذاتها، وتتواطأ مع النسيان ضد نفسها إن راقها الأمر ورغبتْ في التلاشي والخفوت، تمامًا مثل شعلة تخفت على مهل إن لم تجد ما يؤجّجها من ريح ووقود.

الذاكرة أخت النار ورفيقتها، لكنها أختها الوديعة الباردة، غير الراغبة في لفت الأنظار إلى قوتها وما يسعها فعله. هي ظلّ النار إن شئتم.

هذا ما أعرفه الآن. أومن بأنها أقوى حتى من النار، فالأخيرة يمكنها التهام رجل وزوجته وابنته بحيث يصيرون ترابًا لا سبيل إلى التكهن بأصله، يمكنها تحويل شقة من أربع غرف وصالة إلى مساحة خربة يغطيها السخام والهباب، ويمكنها القضاء على مكتبة عامرة والتلذذ بأكل مُؤلَّف نادر أكثر من تلذذها بأكل سواه.

أما الأولى، فيـــمها - إن أرادت - أن تُعيد تشييد هذا كله في المخيلة، أن نحيه ونمنع محاولات إخفائه والتشويش عليه. في مخيلتي كان أستاذي يتحرَّك، كان يتكلم ويمشي ويثير ضجيجًا فوق طاقتي. كانت زوجته وابنته بثياب سوداء-لا تكشف عن هُويتيهما- تخطران بداخلي، تثرثران معًا، وتحمل كلٌّ منهما صينية فوقها فنجان قهوة، وتطرق بابًا يُفضي إلى غرفة جلوس لها باب آخر يقود إلى الدَّرَج الخارجي، في الغرفة أجلس أنا مع الأب، أتظاهر بالإنصات له، فيما ذهني مشغول بمخططات أخرى لا تشمله.

في مخيلتي أيضًا مُؤَلَّف نادر، التهم سطوره بنهم، وأكاد أحفظها من فرط التكرار. مُؤَلَّف كأنني كاتبه مع أنني لستُ إياه. مُؤَلَّف يحكي عني؛ عن ذات قديمة تشبهني. يكشفها لي ويُعريها أمامي. يُعريني أمام نفسي، برغم أن المُؤَلِّف قصد فضح نفسه وتعرية خطاياه هو أملًا في التكفير عنها.

أحرقتُ الكتاب والمكتبة والبيت بمَنْ فيه، وفررتُ من المدينة كلها، هجرتُ بيلًا وعدتُ إلى المنيا للعيش مع أمي، ومع هذا ظلَّ المغدورون أحياء في مخيلتي، أحياء في ذاكرتي. لا أشعر بالندم، ولا يساورني أي إحساس بالذنب، يضايقني فقط أن النار كشفت عن محدوديتها في مواجهة الذاكرة.

أنَّى لي أن ألقم ذكرياتي للَّهب؟! كيف لي التخلص منها والنجاة من عبثها؟! لم يكتشف أحد فعلتي. نجوتُ بها. أُغلقت القضية بسرعة. ماس كهربائي. سبب شائع للحرائق، لا يثير الاستغراب ولا الشكّ. من قالوا إنهم سمعوا صراخًا من بيت أستاذي قبل الحريق، لم يعتدّ بكلامهم، والنيران قضت على أي دليل محتمل.

كان ماسًا كهربائيًا بالفعل. ماسًا كهربائيًا بفعل فاعل. جريمة كاملة لا أهداف لها في نظر من يُخضِعون كلَّ شيء للمنطق المتعارَف عليه. لم آخذ صندوق جواهر من بيت أستاذي، لم أقتنص نقودًا ولا كتبًا نادرة ولا مخطوطات قيمة تحفل بها المكتبة. وحتى لو أخذت واقتنصت، ما من وسيلة لإثبات هذا.

نذرتُ كلَّ شيء للفناء، ومع هذا لم يفنَ. ظل حيًا فيَّ: أستاذي وابنته وزوجته. غرفة الجلوس بكل تفاصيلها، والكتاب بكل حروفه وما يكشفه من أسرار، ما كان لها أن تُكشَف وتُعرَّى على الملأ هكذا، حتى لو لم يعد أحد يعرف شيئًا عن أصحابها.

قبل الحريق بأسبوع، أخبرني زنديقي الحبيب بأنه ينوي نشر الكتاب بمقدمة ضافية باعتباره قطعة نادرة من الأدب لا ينبغي الاحتفاظ بها لنفسه، ذكر شيئًا عن فرادة الأسلوب وقوة البناء، وتخلص الكاتب من الزخارف اللغوية المبالغ فيها. سألني إن كنت أتفق معه بخصوص أن مُؤَلَّف مالك النسَّاخ هذا يختلف عن كل ما كُتِب في عصره، فأثنت على كلامه؛ لأنه صحيح من الناحية الفنية، لكنني – في أعماقي- كنت مشغولًا بنواحٍ أخرى، وقد أضاء الكتاب عتمة ذاكرتي وذكَّرني بما كان متواريًا تحت طبقات وطبقات من النسيان والجهل.

كنت مهمومًا بأمر يزيد بن أبيه، أمري لو شئتم. لا أعرف لِمَ حرص على تدوين كل ما جرى له ومعه. أكان يرغب في التطهُّر عبر الكتابة؟! أرغِبَ في الاعتراف إلى الأوراق والمخطوطات؟! ما هذه السذاجة يا يزيد؟! غير أنك لم تكن وحدك الراغب في التطهُّر، مالك بن عدي النسَّاخ رافقك في هذا أيضًا. دوَّن تفاصيل خياناته المزدوجة لك، ثم إنه زوَّد مُؤَلَّفه بما سبق وخططته أنت

حاكيًا كيف قلب بيتك القديم بحثًا عن لفائف مخطوطاتك بعدما حكت له مجيبة عن قراءتها لبعض ما كنت تدوِّنه.

ليتني ما سألت الزنديق عنك منذ البداية! ليتني ظللتُ غافلًا عن وجود مُؤلِّف مالك النسَّاخ هذا. كان الزنديق يتفحصني مليًا وهو يحدثني عن تيه في نشر الكتاب الموجود بحوزته. لم أكن قادرًا على سبر أغواره، وضايقني استغلاقه على فهمي.

شجعته على الأمر طبعًا، وعرضت عليه أن أساعده في أي شيء يراه مناسبًا. شكرني وانتقل إلى موضوع آخر. طلب أن أحضر له بعض المخطوطات القديمة من تاجر يسكن في باب الشعرية، قال إن الرجل ينتظرني في التاسعة من صباح الغد. كان قد بدأ يتعامل معي كما لو كنت مجرد ساعي بريد خصوصي. لم يعد يسألني - كما في السابق - عن المواعيد المناسبة لي للذهاب في هذا المشوار أو ذاك.

لم أكن أعترض، مثلما لم أعترض حين بدأ في تضمين ملاحظاتي وأفكاري في مقالاته وكتبه الأخيرة دون نسبها إليَّ. من أنا، على أي حال، كي ينسب مفكر مشهور مثله لي رأيًا أو فكرة؟!

كنت أخجل كل مرة أجد فيها أفكاري متضمَّنة في كتاباته، كأنني أنا المخطئ بشكل ما، كأن عليَّ الاختفاء لفترة؛ كي لا يشعر أستاذي بالحرج، إذا حدث وتقابلنا بعدها مباشرةً.

غير أن أستاذي لم يبدُ عليه الشعور بأي حرج قط. كنت أحيانًا أعارضه برأي ما في خضم نقاش مستعر بيننا، وبعد دقائق قليلة أجده يتبنَّى رأيي كأنما يخصه هو ويحاول إقناعي به. كنت أشكُّ في نفسي أحيانًا، أقول ربما لستُ مَن قال هذا قبل دقائق، إنما أستاذي، لكنَّ تشوشًا ما يجعلني أظنّ أنني صاحب الرأي.

في حالات مماثلة اعتدتُ هزَّ رأسي موافقًا، كأنني اقتنعت أخيرًا بما يقول؛ فيبدو عليه الارتياح، ويعرِّج بالحديث على موضوع آخر.

بعد احتراق الشقة بمن وما فيها، وتقييد الحادث ضد الماس الكهربائي، شعرت بأنني لم يعدْ لي مكان في القاهرة، وعليَّ العودة إلى المنيا والاستقرار فيها في أسرع وقت.

كنا قد تأكدنا قبلها من موت أبي في تغريبته الليبية، وعلمنا أنه فارق الحياة في طريقه من ليبيا إلى القيروان في تونس، وكانت آلام أمي قد توزَّعت بين السكري والخوف من مضاعفاته وبين مغص كُلوي حاد ومتكرِّر بسبب حصوة في الكلية اليمنى ينبغي إزالتها؛ فتركتُ كل ما ورائي وما أمامي وعدت كي أكون بجانبها، ووجدتها فرصة مناسبة لنقل نشاطي كله إلى هناك، مع الاكتفاء بزيارات دورية للقاهرة؛ للتواصل مع تجار الكتب القديمة وزبائنها. ناسيًا أيضًا طيَّ صفحة علاقتي بيلّا، ووضع مئات الكيلومترات بيني وبينها.

-٣-

ياسمين في رأسي، ياسمين في جوفي وأحشائي، ياسمين يملأ الكون من حولي. أغصّ به، أختنق برائحته؛ فأتوق إلى عالم خالٍ منه ومنها. لم تعدْ أحلامي وحدها مغمورة بتلك الزهرة البيضاء الغاشية، غادرتْ أراضيَ نومي وانتقلتْ إلى جغرافيا صحوي. غزَتْ كلَّ ما يُحيط بي. لا أراها مزدهرة فوق شجيراتها، بل متساقطة، متكوِّمة في الدروب والطرقات، أو متطايرة في الهواء وسط عاصفة ما. تخفت الروائح الأخرى، يتلاشى ريحان أمي ونعناعها، ويختفي كلُّ شيء آخر، وأبقى وحدي في مواجهة أكداس من زهور ميتة يحوِّل عبيرها صدري الحسّاس إلى موقد مستعر يحرقني من الداخل.

أسعل بلا توقف، فتتخلع أعضائي واحدًا تلو الآخر. أغمض عينيَّ – متمنيًا لو أن هناك طريقة تمكنني من تعطيل حاسَّتي الشَّم والسمع– فتتكثف الرائحة أكثر. أفتحهما فأجدني سائرًا وسط بساتين ممتدَّة من نخيل وأعناب. لا أبصر ياسمينًا، ومع هذا تلتصق بي رائحته وفكرته، أرى بعينيَّ خيالي صفوفًا من شجيراته تنحني عليها ملائكة شفافة لقطف زهورها. تنفصل الزهور عن الملائكة، وتطير نحو السماء. يتألق لونها وينصع بياضه حدَّ اللمعان. أدقِّق فيها فتنبعث منها وجوه تستحيل أجسادًا. أردِّد بصوت لا علاقة له

بصوتي كما أعرفه: هذا شيخي الحسن البصري، وهذا إمامي واصل بن عطاء، وهذا عمرو بن عبيد الباب، وذاك المشتغل بالتدوين هو مالك النسّاخ. أراني بينهم، أركض خلف البصري تارة، وألتفت نحو أبي حنيفة أخرى. أهجس بأنني حائر بين الاثنين. لا، بل أنا الحَكَم بينهما. لكن كيف لشخصي الضعيف أن يكون حَكَمًا بينهما وهما مَنْ هما؟! أزيح الفكرة عني مواصلًا سيري وعيناي معلقتان بالأعلى؛ حيث الزهور والألسنة يصعدون في معراج لا أفهم أبعاده.

أصل إلى كرمةٍ خاويةٍ على عروشها، فأشعر بأنها موطني ومستقرّي. على مقربة، ألمح الأسوار كأنني عشتُ في رحابها عمرًا بأكمله. أجلس على الأرض، أرنو نحو الكروم المتيبّس، وأنتقل منه إلى تأمّلِ أفقٍ ملتبسٍ؛ فيوجعني قلبي.

يدلني هاجسٌ مفاجئ على أن رحلتي تنتهي هنا. أفكر في حفر الأرض. لا أجد معولًا يُعينني على فعل هذا، فأُحجِم عن الفكرة. أرقد على ظهري حالمًا باخضرار العشب أسفلي، وعودة الكرمة إلى سابق عهدها. مؤكد أنها كانت يانعة مزدهرة يومًا ما. أعرف، على نحو مبهَم، أنها يبست حزنًا وقهرًا. غزاها الموت يوم دُفِنت ذاتي القديمة في عمق تربتها. لم يكن جسدي - بعد التحلّل - صالحًا لمدِّها بالحياة. كان ترياقًا، زادت جرعته، فاستحال سُمًّا لا شفاء منه. نُبِش قبري المرتجل هذا، وتُرِك لبرهة فاغرًا فاه للسماء، فاختلّ توازن محيطه. قُتِلتُ غِيلة، وقُبِرتُ بلا غُسْلٍ ولا صلاة جنازة، وزرع قاتلي شجيرة ياسمين فوق قبري، فكبرتْ وتفرعتْ وتآمرتْ معه لإخفاء جُرمه. لم يسأل أحد ما الذي أتى بالياسمين على حدود كرمة وارفة! أعرف هذه الياسمينة. مَدّت فروعها المتسلقة في كل

الاتجاهات، تَوَغّلَتْ في بستان الكروم، طغتْ عليه وغزتْ عروشه.
من مكمني في باطن الأرض حدستُ بزهورها البيضاء المنتشرة طولًا وعرضًا بامتداد البستان، تخيلتُ ملائكة تنزل من السماء كل ليلة لقطف الياسمين، وتخيلتُ البصرة بلا ياسمين ولا بساتين. أكان شيخي وإمامي مخطئًا؟! هل أخفق في تفسير رؤياي؟! لا أظنّ. بعد منامي، رحل علماء مدينتي بالفعل. ومع هذا، فاته أن الرؤية تخصني أيضًا، وكذلك ياسمينها؛ ياسميني المتغذي على جسدي.

تقول المرأة التي تعيش معي وتقتحم عزلة غرفتي مرتين يوميًا؛ مرة في الصباح وأخرى في المساء، أن لا بساتين في الجوار، وأن الحديقة الصغيرة التي تطلّ عليها نافذتي ليس بها ياسمين ولا حتى فُلّ؛ فقط نخلة وحيدة وأشجار بومباكس زهورها برتقالية، مثل تلك الشجرة التي وَجَدَتني غافيًا فوق مقعد رخامي مثبّت أسفلها ذات صباح. كانت محتدة، حين أفقتُ، تلتمع عيناها ببريق مخيف ويقف خلفها البواب وهو يلتقط أنفاسه بصوت مسموع كأنما فرغ لتوه من العَدْو. سألتني كيف غافلتها وتسللت من حجرتي. اتهمتني بتعمُّد إزعاجها، وتنهدتْ بنفاد صبر حين أخبرتها بأنني أكلتُ القمر وتسببتُ في إظلام العالم، وأنني كنت محاطًا برائحة الياسمين عندما استيقظت، ولمّا لم أجد ياسمينًا في يقظتي، عدت للنوم مجددًا.

لا تقتنع باعتراضاتي، ولا تأبه بما أحكيه لها، فقط تنصت إليّ بنظرة حائرة تذكّرني بكل الألغاز التي لم أفلح في حلها، وبقيت تهمس لي بأن الإبهام طبقات وطبقات مرخية على عالمي.

تناديني باسم هشام. أخبرها بأنّي يزيد بن أبيه المقتول غيلة والمدفون في حفرة على حدود كرمة قريبة من شطّ العرب، فتهزّ

رأسها بنفاد صبر، ثم تعود لمناداتي بهشام، فأصمت ولا أردّ عليها.

أشفق عليها أحيانًا، لا ذنب لها في كل هذا. ربما تلعن في سرّها اليوم الذي عرفتني فيه بعد أن عدتُ من المنيا للإقامة في القاهرة بشكل نهائي. لم تدرك ما الذي ورَّطتْ نفسها فيه حين ربطت حياتها بحياتي. لا تكاد تعرف شيئًا عن ماضيّ، وترغب في ردم هوة جهلها هذا بتساؤلات لا تنتهي؛ بعضها أفهم الغرض منه، وبعضها الآخر يخفى عليَّ مغزاه. أجيبها بآلية، فتتغافل عن نبرة الضجر المغلّفة لصوتي، وتواصل أسئلتها المزعجة.

تسأل عن أصل الأغنية التي اعتادت أمي أن ترثي شبابها المنصرم بها، أجيب بأن لا أمهات لي. فتصحح كلامها بتحويل «أمي» إلى «المرأة التي تظنّ أنها أمي»، وتنتظر إجابتي بلهفة.

أرد بنصف وعي، فتسأل عن تفاصيل يوم بعيد تعطّل فيه المرور بسبب عبور موكب مسئول ما. أخبرها بأنّي لا أكاد أتذكر ذاك اليوم؛ فتسعى لتنشيط ذاكرتي. أقاطعها لأحدثها عن الحسن البصري وواصل بن عطاء ومدينة اللغة والأئمة والبساتين، فيحتدّ صوتها وهي تطالبني بالنظر حولي والانتباه إلى تفاصيل واقعي.

أضيق بها، وتباغتني رائحة الياسمين مجددًا، فأتحرك صوب النافذة. أتأمل الحديقة الصغيرة المبلطة باستثناء مساحات ضيّقة متروكة لزراعة ورود وشجيرات متقزمة. تتخطاها عيناي للنظر أبعد، فتتبدى لي أشجار مانجو مثقلة بثمارها، وقطعة من فناء مدرسة يختفي أغلبه عن ناظري. أبصر جزءًا من مرمى كرة قدم. أشعر بالمرأة وهي تلملم أطراف ثوبها المنزلي تمهيدًا للمغادرة. تغلق الباب خلفها، فلا ألتفت. أعرف أنها ستعود صباحًا، وأتمنى ألّا تفعل.

لا يكاد يدخل غرفتي سواها. أسمع همسات خافتة بالخارج، ويتعالى صراخ هستيري بين وقت وآخر، ويصلني وقع أقدام في الممرّ الواصل بين الغرف، لكن باستثناء تلك المرأة التي تترك لي صينية الطعام أمام الباب ثلاث مرّات يوميًا وتأتي للحديث معي مرة صباحًا وأخرى مساءً، لا أكاد أرى بشرًا سوى في أوقات التريض القليلة في الحديقة حيث أتلصص عبر كوة الجدار على المارّة القلائل في الشارع. أحدس بضجيج مكتوم داخل الفيلّا، لا تقتنصه أذناي، فقط تشعر به روحي؛ فتصاب بعدوى التوتر المضمر. في هدأة الليل أفيق من نومي أكثر من مرّة في الليلة الواحدة؛ بسبب ضجة في الغرفة التي تعلوني، كأن أحدهم يحرك كرسيًا أو منضدة. أعاود النوم، لأصحو على صوت خبط متتابع على أرضية الطابق العلوي أيضًا. لا يكفّ ساكن الغرفة التي تعلو غرفتي عن التجوُّل بخطوات ثقيلة والطرْق على سطح خشبي ما، وتحريك الأثاث.

يبدو كأنه يوجّه رسالة لي. أنفض الفكرة عني لفرط سخافتها، وأستسلم للأرق. لا ينام بدوره؛ إذ لا يكاد الصخب يتوقف عنده. أشفق عليه مما هو فيه، لكن لا ذنب لي كي أعاني معه. يكفيني ما بي.

يخطر لي أن أشكو لرفيقتي الدائمة من الضجة الليلية، ثم أقرّر ألّا أفعل عندما أتخيّل التماع عينيها لو بادرتها بالكلام، حتى إن كان مجرد شكوى. ستعتبر الأمر بادرة تجاوب مني مع إزعاجها لي. ثم إنها أنكرت وجود أي ضجة حين شكوت آخر مرة. اتسعت عيناها وهي تخبرني بتجهم بأن الفيلّا تتكون من دوريْن فقط ولا وجود لطابق ثالث، قبل أن تُضيف بأن لا أحد يسكن فيها فيما عدانا.

أحيانًا، حين تناديني بهشام، لا أكلّف نفسي عناء تصحيح اسمي، فتبدو مسرورة ظنًّا منها بأنني قد اقتنعت بما تقول، وعدت إلى هُويتي المُرْضية لها. لا فائدة من أن أشرح لها أنّي هشام بقدر ما أنا يزيد، لكن هويتي كهشام واضحة ومعترف بها، ولا تحتاج للدفاع عنها مثل هويتي كيزيد بن أبيه.

أَعَليَّ أن أحكي لها قصة الأعرابية التي سألوها عن أحبُّ أبنائها إليها، فقالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى والغائب حتى يعود؟!

يزيد، بالمثل، هُويتي الأحب والأقرب إليَّ؛ لأنه مَنْ يحتاج إلى تعاطفي ودعمي، هو المغدور به، والذي ترفرف روحه حولي أينما ذهبت، وتُحيط بي رائحة الياسمين كما أحاطت بقبره، بعدما زرع قاتله شجرتها فوقه. أنّى لي الهروب من ياسمين الموت هذا وشذاه لا يفارقني؟!

لن تفهمني إن أوضحت لها هذا، وسوف تكتفي بندب حظّها الذي أوقعها معي. تقول إنني بدوت مثاليًّا في بداية تعارفنا لدرجة أنها حمدتِ الله وشكرتْ فضله على حسن طالعها. لا يهمني كل هذا، ما يهمني الآن أن تُخلصني من ضجة ساكن الطابق العلوي.

سألتها عنه مرة، وأنا من وصفها له بالحالة المثيرة للاهتمام. الناس عندها مجرد حالات؛ بعضها مثير لاهتمامها وبعضها الآخر لا. لا تنتبه، على ما يبدو، إلى أنّ بعض الناس كتلة من أعصاب عارية معرّضة للاحتراق الدائم. لمّا واجهتها برأيي هذا، أنكرت أنها قد وصفته بالحالة المثيرة للاهتمام. قالت: كيف أصف من لا وجود له؟! وطالبتني بالكفّ عن الاختلاق.

على الرغم من هذا، أجد نفسي أحيانًا أحكي لها كل ما ظننت أنني لن أفشيه لمخلوق. شيء ما فيها يدفع الآخرين للبوح لها بمكنون نفوسهم. أو ربما تكون تلك الحقنة المهدئة التي تغرسها في ذراعي من وقت لآخر هي المسئولة عن نوبات اندفاعي في البوح.

لست متأكدًا، لكن حقنتها تجعلني هادئًا مسترخيًا، وتُسكِت شياطين وأسى لفترة. تُنسيني كلَّ ما يخصُّ يزيد مؤقتًا، وتفتح شهيتي على الكلام والحكي. يسري محتواها في وريدي، فلا أكاد أعي وجود المرأة معي بالغرفة، تستحيل إلى جهاز تسجيل، أو مجرد أذنين ألقي فيهما بما يشغلني ويثقل عليّ.

أسألها عن أمي، ولماذا لا تأتي لزيارتنا هنا، ترد بسؤال: ألم تقلْ لي إن لا أمهات لك؟!

أتجاهل تذاكيها، وأعاود السؤال. تتوه نظرتها وتتهرب من الإجابة بتغيير الموضوع.

أشتاق إلى شقتنا في المنيا، أتمنى لو أعود للنوم في سريري الأليف. أظنني لن أتذمر من برطمة أمي المتواصلة، ولا من شكواها من هذا الأمر أو ذاك.

آخر مرة رأيتها فيها، قبل أن أنتقل للإقامة في القاهرة مباشرةً، كنا نسير بمحاذاة النيل معًا، ثم تعثرتْ وغرقتْ بعدها في سبات عميق، حاولتُ إفاقتها ولم أفلح. هززتها مرارًا بلا طائل. ربما تكون لا تزال في غفوتها. أرغب في العودة إلى شقة المنيا للاعتناء بها، مؤكد أنها ملّت من النيل وعادت لسقي أصص النعناع والريحان وطهو أطعمتها الشهية. سوف أحكي لها ما يشغلني، ربما تفهم أخيرًا ما أبعدني عنها طوال كل هذه السنوات؛ ما وضع بيننا هوة يصعب تجسيرها.

في عامنا الأخير معًا، كان ذهنها يغيب باستمرار، اعتادت أن تحكي لي عن أمها وأخيها وجدتها، تلك المرأة التي كانت مغرمة بقطع الطرقات الموصلة إلى القرى المجاورة، كأنما تبحث عن شيء فُقِد منها قبل أن يبدأ الزمان. حكت لي أيضًا عن أبيها؛ التاجر العاشق لليلى مراد حدّ تسمية ابنته ليلى وابنه مراد. مراد؛ أخوها، الذي اعتادت أن تقول لي إنه أكثر من تشتاق إليه، وتبكي حين تتذكر حنوه عليها واهتمامه بها.

أقول لرفيقتي التي لا تشبه بيلّا في شيء، إنّي أرغب في العودة إلى المنيا لرعاية أمي، فترد بأن هذا غير ممكن. تسأل عن أستاذي، وآخر مرة رأيته فيها، تطلب مني تسميع خطبة واصل بن عطاء غيبًا.

«إن كنت تحفظها كما تدعي».

تضبف فيتضاعف بغضي لها.

أدير لها ظهري، وأتكلم مغمضًا عينَيّ:

«الحمد لله القديم بلا غاية، الباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوّه، ودنا في عُلوّه، فلا يحويه زمان، ولا يُحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خَلَق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بل أنشأه ابتداعًا، وعدّله اصطناعًا، فأحسن كلَّ شيء خلقه وتمّم مشيئته، وأوضح حكمته، فدَلَّ على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه تواضع كلُّ شيء لعظمته، وذلَّ كلُّ شيء لسلطانه، ووسِعَ كلُّ شيء فضلُهُ، لا يعزُب عنه مثقال حبّةٍ وهو السميع العليم......».

ثم تغيم ذاكرتي، وتختلط فيها الكلمات وتبهت إحداها على الأخرى. أشعر بالخدر، بأن أسرابًا من النمل تقتات على عقلي، تتغزه تغزًا خفيفًا سرعان ما يزداد. أتهاوى على الفراش القريب،

غير قادر على النظر نحوها. ترفع رأسها، أخيرًا، عن أوراقها وتقترب مني وتشمر كُمّ قميصي، تجهّز حقنة وتغرسها في الوريد. عبر الضباب أرى يدي تدفع أمي، المهزومة بالمرض والشيخوخة، صوب الماء، ثم أراني واقفًا في صدر صِوان عزاء والجميع يواسيني ويشدّ من أزري. بعد ذاك أسمع صوت الزنديق وهو يسألني حائرًا عن أي كتاب نادر أتحدث! أقول له كتاب مالك الشاخ، فينظر لي نظرته لمجنون. أتدارك الأمر وأخبره بأن الأمر اختلط عليّ، وبأنني مرهق وأحتاج إلى فترة راحة. أغادره مع وعد بعودة قريبة؛ فيتابعني وقد انعقد حاجباه وبدت على وجهه أمارات الانشغال.

يتكاثف الضباب أكثر ويصير حاجزًا قاتمًا يفصلني عن كل ما عداي. يتراخى جسدي، لا، بل يتراخى العالم كله، فلا يعود منتبهًا إليّ ولا أنتبه إليه بدوري، وأشعر بأنني في حفرة، مغطّى بطبقات من التراب وسط ظلمة حالكة يتخللها الشَّذا المؤرّق للياسمين.

شنغهاي.. أكتوبر ٢٠١٨

بساتين البصرة

انطلاقًا من حلم ورد عابرًا في كتاب «تفسير الأحلام الكبير» المنسوب للإمام محمد بن سيرين، تُشيِّد منصورة عز الدين عالمًا آسرًا يدمج الماضي بالحاضر وتتلاشى فيه الحدود بين الذات والآخر.

رحلة حافلة بالأسئلة والشكوك، يبحث خلالها البطل هشام خطّاب عن الشيء في سواه، ويقتفي أثر ذاته خارجها، علّه يقبض على لمحة منها في كل ما عداها، فيما تقتنص الكاتبة من كلمات وحيوات الآخرين منمنمات تشكّل عبرها ملامح حياته.

في «بساتين البصرة»، يشفّ الزمان وتضيق المسافات بين أبطال عالقين في لعبة مرايا تتصادى مع مقولة الرواية: «الزمن نهرٌ سيّال والمكان وَهْم. مكاننا الحقيقي موطن أرواحنا».

منصورة عز الدين: كاتبة وروائية مصرية، صدر لها أربع روايات وثلاث مجموعات قصصية. وصلت روايتها «وراء الفردوس» إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية ٢٠١٠، كما فازت روايتها «جبل الزمرد» بجائزة أفضل رواية عربية من معرض الشارقة الدولي للكتاب ٢٠١٤. نالت مجموعتها القصصية «نحو الجنون» جائزة أفضل مجموعة قصصية مصرية من معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٤. ووصلت مجموعتها القصصية «مأوى الغياب» إلى القائمة القصيرة لجائزة الملتقى للقصة العربية عام ٢٠١٨، والقائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد؛ فرع الآداب لعام ٢٠٢٠. تُرجمت أعمالها إلى أكثر من عشر لغات.

دار الشروق
www.shorouk.com